

کرم البستانی

امیر است لبنان

مکتبه صادر
بکرات

NEA



T

اميرات لبنان

S

front

B

الرسوم الثلاثة المثبتة في هذا الكتاب
هي من مجموعات مديرية الآثار اللبنانية

al-Bustanī, Karam

كرم البستاني

/Amīrāt Lubnān/

أَمِيرَاتُ لُبْنَانَ

مكتبة صادر
بيروت

Near East

DS

80

.75

.B87

C.1

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

اميرات لبنان

لم ابحث في تاريخ اميرات لبنان إلا لأتخذهن مثلاً أضر به
عن المرأة اللبنانية القديمة والحديثة ؛ وعمّا هي عليه من ذكاء
وفطنة ، وثقافة وحكمة وبصيرة ؛ وما عرفت به من اقدام
على مصاعب الأمور ، ومن مشاركة للرجل في اعماله الوطنية
والسياسية والعمرانية ، حتى انها ، على حد قول الاستاذ جرجي
نقولا باز فيها : « لم تدع أمراً لم تمدّ اليه يداً وتشغل فيه فكراً ،
حتى السياسة والسيادة ، مجلى الثقافة ، اصابت منها حظاً . »

كانت المرأة اللبنانية منذ اقدم العهود ، ولا تزال ، ذات
تأثير عظيم في سنى الحياة اللبنانية ، يستوحبها اللبناني في المصاعب
ومعتقدات الأمور فتبهوتها عليه ، « وتبث في نفسه اجمل الاماني
واسمى الشعور » .

وقد عرف اللبناني قدر رفيقته ، فأحبّها وأجلّها وأعزّها
منزلتها ؛ وما تعنّى الشاعر اليوناني نونوس ، في شعره ، بمحاسن
اللبنانية وآدابها إلا برهان بين على انها استحققت المقام الذي
رفعا اليه رجلها اللبناني .

وحسبنا ان نراجع التواريخ القديمة لنقف على مبلغ ازدهار ثقافتها في عهد الرومان ، وعلى ما كان لها من أثر طيب في القوانين التي وضعها الامبراطور بوستنيانوس ؛ تلك القوانين التي كان للدماغين اللبنانيين الكبارين : أوليان ويايينان ، يد بيضاء في إكلها وتهذيبها .

وفي معجم « لاروس بورتوس » ان جوليا ماميا والدة الامبراطور الروماني اللبناني اسكندر ساويروس ، وجدته جوليا ميذا كانتا تعاونان هذا الامبراطور في القيام بمهام مملكته ، وفي إعادة الامبراطورية الرومانية الى ما كانت قد فقدته ، على يد سلفه ، من عظمة وهيبة .

وكان للمرأة الاسطورية اللبنانية تأثير عظيم في تمدن العالم وثقافته وتوجيه ديانته : فأوروبا بنت اجينور ملك صور ، وهي التي تزعم اسطورتها ان جوييتو خطفها ، وهو في ثوب ثور ابيض ، من على شاطئ صور حيث كانت وارتاجها ، وسار بها عبر البحر المتوسط ؛ اوروبا هذه هي التي ألبست اسمها قارة بكاملها وعُبدت فيها .

وهرمونيا زوجة اخي اوروبا، قدموس ، رمز انتشار الفكر اللبناني والحروف اللبنانية في الغرب ، عُبدت في تلك القارة ايضاً عبادة ابنة حميها .

وكذلك لييبا عمّة اوروبا ، ابنة بُدْ عَشْتَرْت ملك
صيدون ، وزوجة بو صيدون والد اجينور ، مدّنت افریقیة
ومنحت اسمها لجزء منها .

ويطلعنا تاريخ القدامى على ان الملكة عَمْعَشْتَرْت ، كاهنة
عشتروت ، ابنة الملك أَشْمُنْعَزَر الاول ملك صيدون ،
وزوجة اخيها الملك تبنيث ، تولّت الملك ، بعد موت زوجها ،
بالوصاية على ولدها القاصر أشمنعزر الثاني - وقد توفي هذا الملك
حادثاً لم يتجاوز الرابعة عشرة - فأدارت المملكة الصيدونية
بحكمة وعدل ، وعزّزت الآداب فيها ، فكان تأثيرها عظيماً في
الثقافة اللبنانية .

وإيزابيل بنت إيتوبعل ملك صيدون تزوّجها أحاب بن
عمرى ملك اسرائيل ، فسيطرت عليه بذكائها وجرأتها ، وأدارت
مملكته في حياته ، فكانت تكتب الكتب باسمه وتختتمها بخاتمه
وتنفذها .

وقد بلغ من سيطرتها عليه وعلى اهل مملكته أن حوّلتهم

١ اشمنعزر (اشمون ساعد) هو رأس السلالة الصيدونية التي يرجح انها
ملكته ، في العهد الفارسي ، من سنة ٧٠٠ الى سنة ٤١٠ ق . م . وكان منها خمسة
ملوك : اشمنعزر الاول ، فابنه تبنيث ، فابنه اشمنعزر الثاني ، فابن عمه بد عشتروت
(نسيب عشتروت) فابنه يعطون ملك (الملك اعطى) .

عن عبادة إله إسرائيل ، وجعلتهم يعبدون البعل وعشتروت ،
بعلة الفينيقيين ، وحملت زوجها على ان يبني هذين الالهين
الحرافيين بيوتاً في السامرة ومجدلة .

ولما ثار الصيدونيون على الملك الفارسي أرتخششتا الثالث ،
اراد هذا الملك الغاثم ان يقمع ثورتهم ، فقتل الرهائن المئة
الذين كان الملك تيس ، الصيدوني ، قد بعثهم اليه ، وأتبع
بهم الوجهاء الخمسة الذين ذهبوا اليه يرجون منه ان يعفو
عن مدينتهم .

ولما رأى الصيدونيون فعله ادركوا ان لا مناص لهم من
الموت ، وفضلوا ان يجرفوا مدينتهم ويجرفوا فيها جميعاً على
ان يقعوا في قبضة الملك الظالم .

وقد أثار النخوة والأنفة في صدورهم ، فتاة - قد تكون
اسطورية وقد تكون حقيقة - تدعى عشتوريم ، مشت امامهم
الى النيران الموقدة في المدينة ، وترامت فيها مفضلة ان تموت
حررة عزيزة على ان تموت سبية ذليلة . وحذا اهل المدينة
حدوها ، فماتوا اعزاء كراماً ، ولم يستول ارتخششتا ، من
مدينتهم ، الا على انقاض ورماد .

وليس شأن اللبنانية في العصور الاخيرة بأقل من شأن
اللبنانية المتوغلة في القدم ، فكثيرات هن اللبانيات اللواتي

لمعن في التاريخ اللبناني ، وكان لمن اثر جميل في حياة لبنان
السياسية والعمرانية .

وإذا استئنيت اللواتي خصصتهن بالذكر في هذا الكتاب ،
نرى في مذكرات الاستاذ باز اميرة لبنانية عاشت في العهد
الصليبي ، هي إزابلا بنت جان دي بلان امير بيروت .

ولدت هذه الاميرة في بيروت ونشأت فيها ؛ ولما مات
ابوها خلفته في امارة المدينة من سنة ١٢٦٢ الى سنة ١٢٨٠ ،
وادارت الحكم على افضل ما يكون من حكمة وشجاعة .

وقد ذكر الاستاذ باز نفسه ، في محاضرة له ، عدداً غير
قليل من اللبنانيات اللواتي تولين الحكم في العهد الاقطاعي ،
او شاركن ازواجهن فيه ، منهن : زوجة الشيخ جفّال الخازن
واخته بدوانية تولتا عهدته في الذوق وعظورا .

وام منصور زوجة الشيخ فضل الخازن ، التي تولت عهدة
كسروان في أيام الأمير بشير الثاني ، ومنعت بحسن سياستها
وحزمها ، الجيش المصري من دخول المنطقة الكسروانية
واجتياحها .

وجلتول المرعب والدة حمد بك المرعب التي تولت حكم
عكار من قبيل ابرهيم باشا المصري .

وفاطمة الاسعد ، الكاتبة الشاعرة ، التي شاركت زوجها

علي بك الاسعد في حكم جبل عامل ، وانشأت في قلعة تبنين
ملجأً لتربية البنات وإيواء المعوزين .

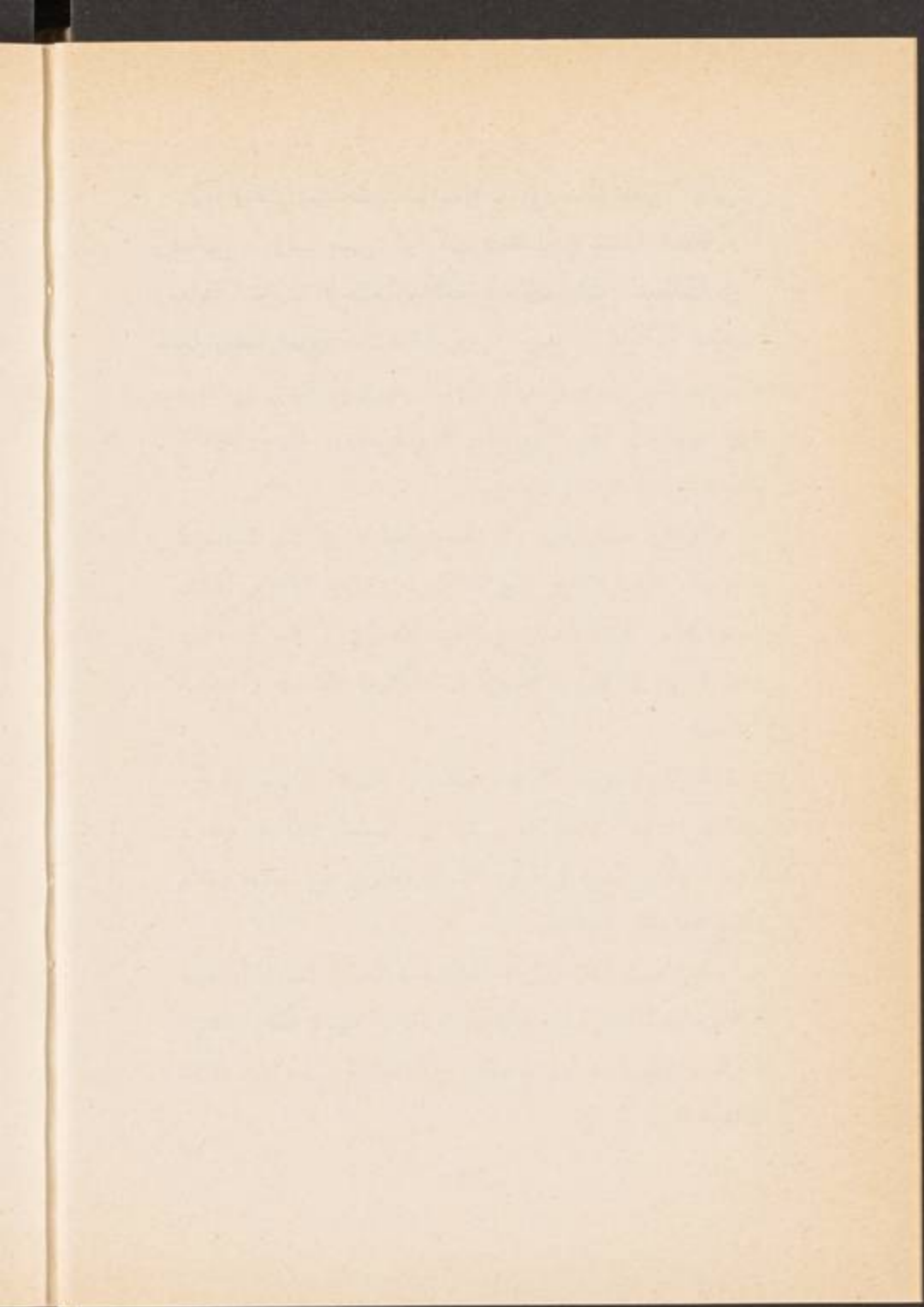
ومئة نساء غيرهن كان لهن تأثير في سياسة لبنان كمریم
الحبيشية المكتاة بأُم حمزة ، زوجة الشيخ فارس حبيش ،
اشتهرت بشجاعتها وإقدامها ، وكانت يد زوجها اليمنى في ادارة
عهدة غزير ، في أيام الامير بشير الثاني وبعده ، تُوجّه علاقته
بالدولة العثمانية فيصدر عن رأيها .

والاميرة عليا شهاب ، او الست عليا ، كما كان اللبنانيون
يدعونها ، ابنة الامير بشير الثالث ، وزوجة الامير افندي
رئيس مجلس ادارة لبنان في العهد المتصرفي ، فقد كان نفوذ
هذه الاميرة وتأثيرها عظيمين في الحكومة اللبنانية والمنطقة
الساحلية .

ولنا اليوم من رتبة قصر المختارة السيدة النبيلة نظيرة
جنبلاط ، زعيمة ذات ايدٍ زكية في السياسة اللبنانية، ونفوذ
لامع ، وتأثير شديد في الجزء الشرقي الجنوبي من لبنان، ومقام
رفيع عند سائر اللبنانيين .

ومن اسمى آثار المرأة اللبنانية انتاجها للبنان ادمغة
الكبيرة ومشاهيره من رجال دين ودنيا ، فلو لم تكن عظيمة
لما ولدت عظماء ، ولو لم تكن ريتا الدماغ لما ولدت تلك
الادمغة الريتا .

وما برحت لبنانيات ايامنا سائرات على تَبالة خطى امهاتهن
وجداتهن ، ولنا منهن كواكب لامعات في سماء الثقافة ،
ومعالجة الشؤون الاجتماعية والانسانية، وعاملات نشيطات في
خدمة وطننا العزيز .



أولى الاميرات

Handwritten text in Arabic script, possibly a title or heading, located in the upper right quadrant of the page.

ديدون الصورية

بانية قرطاجنة

يصعب على الباحث في حياة الاميرات اللبنايات ان يجد في التواريخ اللبنانية ما يمكنه من معرفة هذه الحياة والحكم عليها ؛ ذلك بأن هذه التواريخ لم تُعْمَنَ بتقصي أخبار الاميرات عنايتها بتقصي أخبار الامراء ، ألهم ان لم يكن منهن من لمعن لمعناً لا يمكن حجه .

وحتى اللامعات منهن لم يكن حظهن من التاريخ الا شيئاً يسيراً ، فكان لزاماً لمن يريد الكلام عليهن ان يلتقط الشذرات التي اوردها عنهن المؤرخون من لبنانيين وغير لبنانيين ، في مساق بحثهم في تاريخ لبنان ، ويجمع ما يلتقطه ويرتبه ليتسنى له ان يكون فكرة عن اثرهن في نواحي الحياة اللبنانية .

وبما لا ريب فيه ان الاميرة اللبنانية لم تكن طاعمة كاسية تقضي ايامها في التجميل والتزين وحسب ، كما شاءت بعض التقاليد ان تصورها ؛ وانما كانت امرأة ذكية مقداماً ، غيوراً على مصالح وطنها ، معاوناً لزوجها او لولدها ، تُمدّه بأصيل

رأيها ، وتؤيد أعماله وعقائده ، ولو خالفت عقائد بيت ابيها ،
وتشاطره سرّاه وضرّاه .

وأولى هؤلاء الاميرات اللواتي جعلتهن موضوع كلامي ،
نجدها في تاريخ لبنان القديم ، وهي الاميرة عليشار او ديدون
الصورية ، التي بنت قرطاجنة ، واذاعت في افريقية والقسم
الغربي من البحر المتوسط ذاك الاشعاع اللبناني الذي بعث
الفكر البشري من سباته ، وفتح له آفاقاً لا حدود لها ، وخدم
المدنية خدمات سنية لا تُقدّر بشئ .

اختلف المؤرخون في شأن ديدون : فمنهم من رآها شخصاً
حقيقياً غامر مغامرة جريئة كانت نتيجتها أن أسست ، في
الشمال الافريقي ، تلك المستعمرة ، او الجمهورية اللبنانية ،
التي ملأ شعبها التاريخ العالمي بأخبار بطولته ، وسيطرته
السياسية والتجارية زمناً طويلاً؛ ورآها آخرون شخصاً اسطورياً
ولّدته مخيلة الشعب الفينيقي ؛ ولعلّ الثوب الاسطوري الذي
شاء المؤرخ اللاتيني جوستين ، والشاعر اللاتيني فيرجيل ، ان
يلبساها اياه ، ذاك في تاريخه ، وهذا في إنيادته ؛ ولعلّ ما
خصّها به القرطاجيون ، بعد موتها ، من التأليه والعبادة ، هما
الامر ان اللذان حملا القائدين إنها اسطورة على اعتقاد ما قالوه ؛
وربما نداءً عن هؤلاء ان لكل بطل ، من ابطال الازمنة الغابرة ،

حياة" تاريخية ، وحياة" اسطورية ولتدتها مخيلات الشعوب اعجاباً به وإكباراً لمآثبه . ثم أليست الاساطير اعظم الاس التي بنيت عليها تواريخ الشعوب القديمة ؟ فلكل اسطورة ، مؤلفة " كانت أم بشرية ، او مزيجاً من مؤلته وبشري ، أصل" تاريخي تناولته مخيلات الشعوب التي تداولته ، فلوتته وبلورته ، وألبسته ذلك الثوب الخيالي الرائع الذي انتهى اليها .

ومها يكن من أمر فإن ديدرن في عينوننا ، نحن اللبنانيين ، هي فتاة لبنان في عزتها ، وإبائها ، وشجاعتها ، وطيب شمائلها ، وتضحيتها في سبيل مجد وطنها .

كانت صور ، في منتصف القرن التاسع قبل المسيح ، عروس البحر المتوسط ، وسيدة البحار والتجارة والاستعمار ؛ وصفها النبي حزقيال بالعظمة وسعة الغنى والقوة البحرية وامتداد المتجر ، وسمّاها : « تاجرة الشعوب في جزائر كثيرة » .

في ذلك العهد ، الذي ازدهرت فيه قوة صور الحربية والتجارية ، كان على العرش السوري ملك يقال له : بيلوس ، حفيد الملك إيتوبعل ، ملك الصيدونيين ، كاهن عشتروت ، ووالد إيزابيل زوجة أحآب ملك اسرائيل ، وأمّ عَمَلِيَّة التي خصّها الشاعر الفرنسي راسين بمسرحيته أتالي .

وكان بيلوس ، الذي يطلق عليه جوستين اسم تيرون ،

ويطلق عليه الشاعر الاغريقي ميناندر اسم موتون ، ملكاً
قويّاً شجاعاً ، غزا قبرص والجزائر اليونانية غزوات مظفّرة ،
عاد منها بالأسرى والغنائم ؛ وكان شعبه يحبه لجه لشعبه وعدله
وسهره على مصالح وطنه .

ومات هذا الملك عن ولدين : عليشار وبيغاليون ، فتولّت
عليشار الملك بعده ، لأنها أكبر من أخيها سنّاً ، ثم لم يلبث
حزب أخيها ان قوي ، فأنزلها عن العرش ورفع عليه بيغاليون ،
ورضي به الصوريون آملين ان يكون كأبيه عادلاً شجاعاً ،
محبّاً لرعيته ، ساهراً على مصالحها .

اما عليشار فلبثت في بيت زوجها ، وكانت متزوجة ، عن
حبّ ، خالها سيشاربعل اكبر كهنة ملكوت ، واول شخصية
في المدينة بعد الملك ، وأعظم مثير فيها . والزواج بين الأهل
الادنين ، حتى بين الاخوة ، كان أمراً معمولاً به عند الشعوب
القديمة ؛ وقد يكون الملوك اللبنانيون تأثروا فيه الفراعنة
المصريين .

غير ان بيغاليون لم يحقق أمل الشعب منه ، فقد كان ظالماً ،
مستبدّاً ، شريراً ، مستهتراً بالملاهي ، مهملاً لشؤون مستعمرات
بلاده في افريقية والقسم الغربي من المتوسط ؛ ولم يكن يتم
بتدارك الاستعمار اليوناني ، الذي اخذ ، بعد تقدم البحرية

اليونانية في معارج الرقي ، يزاحم صور سيدة البحار والتجارة في مستعمراتها الافريقية ، ويهدد تجارتها في جنوبي اوروبا ، وينافس نفوذها الأدبي والفني .

فراى سيشاربعل ان في عمل بيغاليون خيانة لمصالح صور ، وتفريطاً فيها ، فنصحها فلم ينتصح ، ولكنه هدده بانتزاع كنوزه وكنوز معبد ملكرت من يده ؛ وكان بيغاليون يحسد خاله ، صهره ، على ثروته العظيمة ، ويطمع فيها . فشار ناثر سيشاربعل ، وانتصر له جمهور من الشعب الغاضب على سياسة الملك الحماة ، فألف منهم ، ومن رجال حزب زوجته عليشار ، كتلة معارضة ، ودعاهم الى مغادرة صور معه ، والانطلاق الى الشمال الافريقي ، من بلاد المغرب ، فينشئون هنالك مركزاً قومياً يكون محطة تجارية لبنانية ، وقاعدة تحمي سواحل المستعمرات .

وينعت لويس مينار ، المؤرخ الفرنسي ، في كتابه « تاريخ الشعوب الشرقية القديمة » ، هذه الحركة بأنها « كناية عن ثورة الشعب على الارستوقراطية » لأن هذه الطبقة كانت تؤيد الملك في استبداده واستسلامه الى اللهو والاسراف .

ولم تخف هذه الحركة على بيغاليون فتوقع شرّاً ، وخشي ان ينهار ملكه ، اذا قوي حزب صهره ، ففسد من

رجاله من اغتال كبار الكتلة المعارضة ، ثم ارسل من قتل
صهره ، وهو في معبد ملكرت ، وترك جثته في زوايا الهيكل
غارقة بالدماء .

لكن هذا العمل الجائر لم يكن ليقتل الحزب ، ولا
ليضعف روحه المعنوية ، فتألب الباكون من رجاله حول
عليشار وزعموها عليهم ، وطلبوا منها ان تواصل عمل زوجها ،
وتتم ما كان قد بدأ به .

وكانت عليشار فتاة ذكية جريئة ، لا تهاب الموت ، تحب
زوجها وتريد ان تعيش بذكراه ، وتود لو يتاح لها الانتقام
من اخيها قاتله ، ومنتزع تاج صور عن رأسها ، فلبت طلب
حزبها ، وجمعت اموال زوجها ، وكنوز معبد ملكرت ،
واستأجرت في احدى الليالي سفناً ، كانت راسية في ميناء
صور ، وحملت اليها ، على رقبة ، اموالها وطفلها ورجلها
وابجرت ميممة شطر بلاد المغرب ، فعرجت في طريقها على
قبرص ، ونزلت فيها زمناً قصيراً ، ثم واصلت سيرها الى
افريقية .

سارت عليشار برجلها حتى نزلت في مكان يدعى بروجيتانا ،
على الشاطئ الغربي من تونس الحالية ؛ وهذا المكان يُعرف
اليوم بدوار الشط ؛ وكان أول شيء صنعت ان رفعت مذبحاً

للإله بعل ، إله الشمس ، ولما كان هذا الإله مولعاً بالقرابين البشرية، ضحّت بأحد ابنيها اكراماً له واستدراً لِعطفه عليها، ومساعدته لها في عملها .

وترغم أسطورتها أن روح زوجها زارتها في الحلم ، قبل مغادرتها صور ، وامرتها بأن تذهب بوجها إلى المغرب وتبني العاصمة القومية ، واوصتها بأن تضحي بولديها من أجل إتمام هذا العمل العظيم ، فقدّمت الأول قرباناً للإله بعل ، ثم ضحّت بالثاني حينما بنت مدينتها قرطاجنة ، وجعلت عظامه في أساس البناء .

والتضحية بالأطفال للآلهة ، حين تشييد الابنية العظيمة ، ووضع عظامهم في أساساتها ، كانا من الطقوس الدينية عند الفينيقيين ، ومن الأدلة على ذلك عظام الطفل التي عُثر عليها تحت ركيزة من ركائز جسر نهر بيروت ، يوم وسعت الجسر بلدية المدينة لبضع سنوات خلت .

وبعد ان رفعت ديدون ذلك المذبح ، وقدمت فيه لبعل التقادوم والبخور ، شيّدت على تلال جون البحر حصناً سمته برسا ؛ وفي أسطورتها انها اخذت هذا الاسم من اسم الثور

١ راجع اسطورة ديدون في كتاب « اساطير شرقية » لمؤلف هذا الكتاب.

الذي قاست ، بقدود جلده ، مساحة الارض التي اشترتها من يارباس ، ملك جيتول والقبائل البربرية ، وسيد تلك البلاد .

بنت عليشار حصنها على مقربة من أوثيكا المستعمرة الصيدونية القديمة ، لتزاحمها وتنتزع منها سيطرتها ؛ وهناك لقبها أصحابها بديدون ، اي اللاجئة ، لأنها هجرت وطنها ولجأت الى تلك الارض البعيدة .

هذا الحصن كان نواة لمدينة قرطاجنة ، او قرطاجنة ؛ ويجمع المؤرخون ، ومنهم لويس مينار ، ان قرطاجنة سُيِّدت ما بين سنة ٨٨٣ سنة ٨٦٠ ق . م . على انقراض مدينة صيدونية قديمة تدعى غامبا ، في صدر جون البحر ، الذي عرف بعدئذ بجون قرطاجنة ، ويعرف اليوم بجون تونس .

واسم قرطاجنة فينيقي أُخذ امّا من فريتا حادث فيكون معناه القرية الحديثة ، او من فريتا جنتا فيكون معناه قرية الجنات ، سميت كذلك لكثرة ما كان يحيط بها من بساتين . وبناء هذه المدينة على الشاطئ الافريقي كان تنويجاً لأعظم حركة استعمارية خرجت من صور ، فقد كانت هنالك للبنانيين قلعةً حربيةً ومخزناً أميناً لتجارهم .

قال المؤرخ الفرنسي ميشيله : « كانت قرطاجنة تمثل العاصمة الوطنية ، لأن مركزها في وسط البحر المتوسط كان يسّتي لها

السيطرة على الشواطئ الغربية، والضغط على شقيقتها أوثيكا،
وكل المستعمرات الفينيقية في أفريقيا؛ وقد مزجت الفتح بالتجارة
ونزت في كل مكان بقوة السلاح .

واننا اذا نظرنا الى تاريخ قرطاجنة رأيناها ، بين أخواتها
المدن الفينيقية ، المدينة الوحيدة التي قرنت القوة العسكرية
الى النشاط التجاري . ففي قليل من الزمن صارت جمهورية
بحرية سيطرت على امباطورية ساحلية متوامية الاطراف ،
قامت مقام صور في الغرب ؛ فخلقت لنفسها مستعمرات في
صقلية واسبانيا ، واحتلت طنجة ، فجعلت منها قاعدة عسكرية
تجارية ، واستخدمتها لمراقبة المضيق ، المعروف اليوم بمضيق
جبل طارق . وقد كانت غايتها من ذلك ان تمنع المنافسين لها
من سلوك الطرق البحرية ؛ تلك الطرق التي شاءت ان تستأثر
بالملاحة فيها . وقد أنشأت من اجل هذا عبارة بحرية جعلت
طنجة مركزاً لها ، وبعثت بحارتها رواداً يرودون المحيط
الاطلسي لعلمهم يجدون ارضاً بكرأ تستعمرها^١ .

١ اشهر البعثات البحرية الفينيقية ثنتان قررهما مجلس شيوخ قرطاجنة ،
ويضعهما المؤرخون ما بين ٤٥٠ و ٣٥٠ ق . م . احدهما المروفة بطوفة
خنون ؛ خرج فيها من قانس وطاف حول افريقية في ستين سفينة وثلاثين الف
رجل (كذا) وانثأ في طريقه مستعمرتين : تيمبايريون ، ويقدر انها كانت حيث
تقوم اليوم « المهديّة » قرب رباط . وسيرنه ، ويقدر انها كانت بين رأس جوني

لكن الاميرة اللبنانية لم تتمتع بثمرة جهادها ، لأن جارها
يارباس ، الذي ابتاع منه الارض لبناء مدينتها ، اراد الزواج
بها ، فأبت لأنها كانت تريد ان تبقى امينة لذكرى زوجها ،
وان تتفرغ لما من شأنه ان يحقق لمدينتها الازدهار والقوة ،
فغضب يارباس ، واقسم ان يقوض مدينتها ، وزحف بجيشه
لمحاصرتها .

ولم تكن بعد قرطاجنة قد بلغت من القوة ما تستطيع
معه ان ترد جيش يارباس ، فرأت ديدون ان تقتل نفسها مضحية
بشبابها لانقاذ مدينتها .

وتأخذ اسطورتها هذه الحادثة فتبرزها في ثوب موسى
بالخيال ، ولا غرابة ، فالاساطير بنات الخيال .

نقول الاسطورة : ان ديدون ارسلت الى يارباس رسلاً

ورأس يوجادور . وتدل تفاصيل رحلته ، التي كتبها ووضعها في هيكل كرونوس
في قرطاجنة ، انه بلغ خليج العينة ، لانه سعى احد الجبال العالبة باسم « مركبة
الآلهة » وهذا الجبل ينطبق على قرن جبل الكامبيرون ، الذي يسميه سكان تلك
البلاد بهذا الاسم .

والثانية طوفة هميلكون : طاف فيها حول اقسام اوروبا الخارجية ، واستغرقت
اربعة اشهر منذ خروجه من قانس حتى وصوله الى جزر سورلنغ ، التي سماها
هيرودوت المؤرخ باسم الكاسيتيريدي . وكانت الغاية من هاتين الطوفتين استعمار
منازل جديدة لقرطاجنة .

يسألونه ان يأذن لها ببناء مدينة في ارضه ، وان يأخذ ما شاء
من المال ثمناً . فردّ يارباس رسلها خائبين ، لأن ديانته تقضي
بأن تكون الارض ، المكوّنة من تواب الاجداد ، ملكاً
لالله ملكرت ، إله الغابات ؛ وهذا الاله لا يرضى بأن يباع ،
أو يوهب شيء من ارضه إلاّ بإذنه ؛ وقد رفض بلسان هاتفه
ان تباع ديدون ارضاً .

على ان ديدون لم تباس ، وجعلت تفكر فيما تصنع ، فهتف
بها هاتف : أن الجايي الى الالاهة تانيت ، الالاهة القمر ، فهي
توحي اليك بما تصنعين . فأقامت ديدون مذبحاً لهذه الالاهة ،
ونضحت عليه الحمر ، واحرقفت البخور ، وقربت القرابين
عجالات ابيكاراً ؛ واذا بتانيت توحي اليها : بأن تتحبّب الى
يارباس ، وتعدّه بالزواج .

ذهبت ديدون الى يارباس ترفل في جمالها ودلالها ، وحلاها
وجواهرها ، ففتنته ، ووعدته بالزواج ، فباعها الارض وبنت
مدينتها .

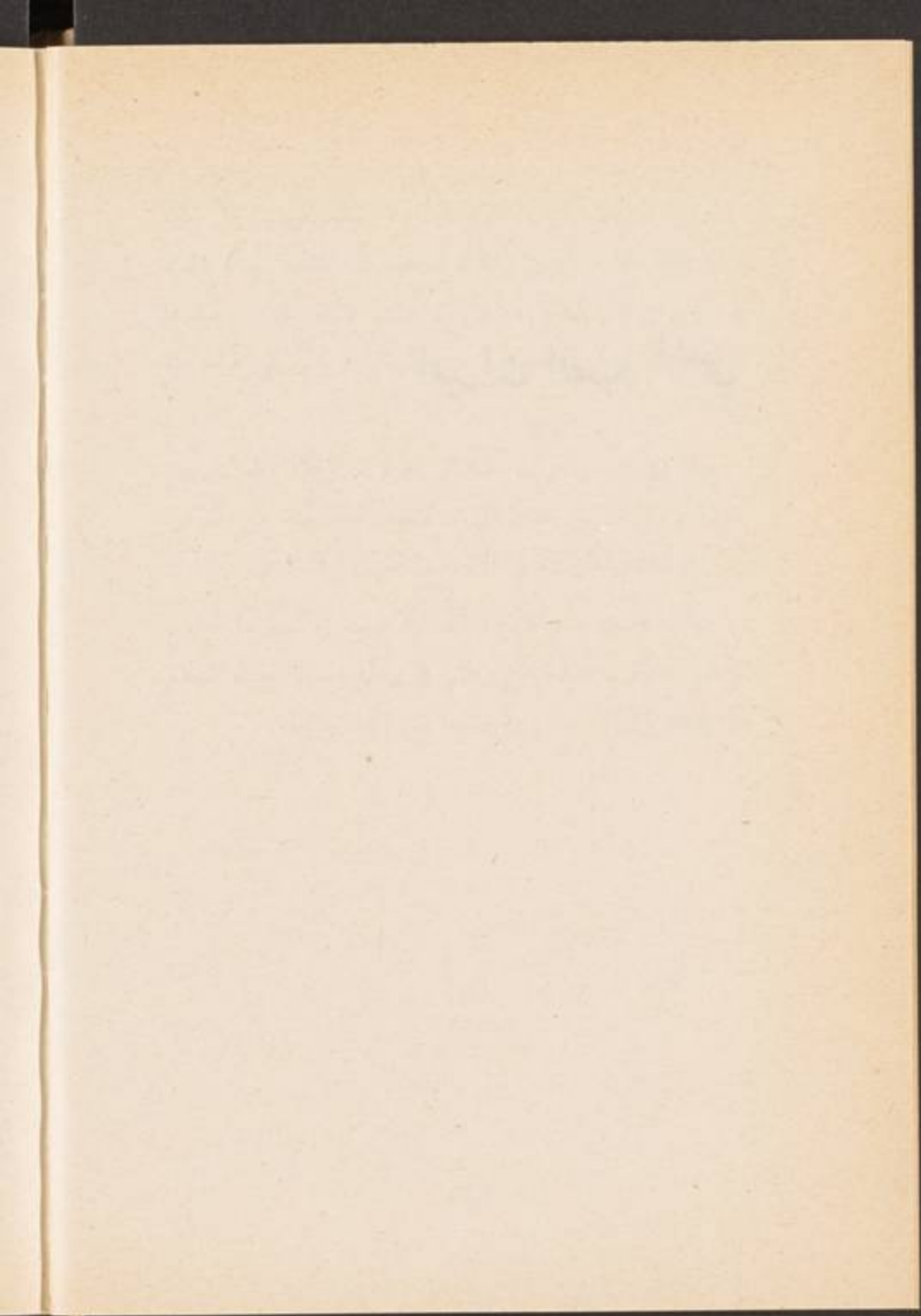
ولما انتهت من بنائها بعث يارباس يطالبها بوفاء وعدها ،
فاعتذرت وعرضت عليه اموالاً كثيرة ليحلّها من هذا الوعد .
وكان يارباس يعلل نفسه بها ، فلما أتاه جواها غضب ، وشقّ
عليه ان تعبث به غريبة لجأت الى ارضه ، فسار اليها وحاصر
مدينتها .

ورأت ديدون ان لا يخرج لها ولا مَنقذ لمدينتها إلا بأن
تموت فداء عنها ، فأمرت بأن توقد لها نار عظيمة ، ثم مشت
الى النار ثابتة الخُطى ، حتى اذا دنت منها طعنت صدرها
بمخبر وترامت فوق ألسنتها ، فالتهمت قرباناً عن قرطاجنة
وأهلها .

ولما علم يارباس بموتها هدأ ثأثر غضبه ، وفك الحصار عن
المدينة وعاد من حيث أتى ، فنجت قرطاجنة من شره ،
وسارت تتقدم اشواطاً في الازدهار الحربي والتجاري .

هكذا قضت هذه الاميرة اللبنانية ضحية زكية على مذبح
الوطنية ؛ قضت بعيدة عن وطنها في وطن جديد خلقته لتخدم
فيه بلادها الأم ، وتقيم لها صرحاً من المجد خالداً .

اميرات العهد المعني



طيبة المعنية

كانت الاميرة طيبة المعنية أول صلة بين المعنيين والشهابيين، فإن زواجها بالأمير محمد الشهابي - وان يكن زواج حب من جهة الامير وحده ، لانها لم تكن تعرفه ، ولا تتوقع رؤيته ، أو ربما توقعها حين خرجت لتشهد الموكب الذي كان فيه ، ولكن لم يخطر في بالها انها سوف تحتل فؤاده - هذا الزواج اذاً كان اول إصهار سياسي بين اسرتين لم تكن الواحدة منهما تعرف الأخرى إلاّ بالسمع ؛ ذلك بأن المعنيين كانوا من ديار ربعة ، والشهابيين من الحجاز ، ولم يور التاريخ ان اجتمع بعضهما ببعض من ذي قبل ؛ دع ما كان بينهما ، قبل ان يتقيس المعنيون ، من العداوة العنصرية اليمنية والقيسية .

وهذا الإصهار السياسي، وما تلاه من عديد الزيجات، مكّن أواصر الرّحيم والمودة بين الاسرتين ، فتناستا العصبية اليمنية والقيسية ، وصار الشهابيون عضداً قوياً للمعنيين ، يناصرونهم بنفوسهم ورجالهم في الحروب ، التي دارت بينهم وبين الولاة العثمانيين ، أو بينهم وبين امراء الاقطاعات اللبنانية .

وقد اخلص الشهابيون النية والود للمعنيين حتى بعد النكبة
التي نزلت بهم على أثر اعتقال الامير فخر الدين الثاني ومقتله في
الاستانة .

والسلالة المعنية تنسب الى جدها الامير معين . وقد اختلف
المؤرخون في نسب المعنيين ، فزعم بعضهم ، ومنهم الخالدي في
كتابه « تاريخ فخر الدين الثاني » ، انهم اكراد من سلالة
الايوبيين سلاطين بغداد وحلب ومصر وثغورها .

وجعلهم آخرون مغولاً ؛ فعلى ما رتبني الايطالي في كتابه
عن فخر الدين الثاني . غير ان بوجه دي سان بيير فتد في
كتابه « تاريخ الدروز في لبنان » كل هذه المزاعم واثبت ان
المعنيين عرب خلص .

ويتفق السيد بوجه في اثبات عربية المعنيين مع كثير من
المؤرخين ، متقدمين ومتأخرين ؛ وكان الامير حيدر الشهابي بمن
صرحوا بعربيتهم الخالصة في تاريخه . قال في اثناء كلامه على
حوادث سنة ١١٠٨ ما نصه :

« نذكر في هذه السنة انساب الامراء آل معين ، وكيفية
ابتدائهم :

« فالامراء آل معين ابتداؤهم من العرب الايوبية ؛ وهم
بطن من ربيعة التي كانت منازلها في نجد وديار ربيعة ؛ فقام

من بعض ساداتهم رجل يقال له ايوب ، وكان فارساً شجاعاً ملازماً الغارة على الجواد للنهب والسلب ، وثقل جانبه وعظم امره بين قومه ، فنهضوا اليه سادات (كذا) ربيعة واخرجوه حسداً من بينهم ، فرحل وسكن الجزيرة الفراتية ، وتكاثر بنوه وأخلافهم ؛ وكان يقال لهم العرب الايوبية في ذلك الوقت نسبة لايوب الذي هو اصلهم . ثم قام فيهم ربيعة اميراً من بني ايوب ورحل من الجزيرة ونزل الديار الحلبية ؛ ثم مات وقام ولده معن .

« وبعد سنين ظهرت الافرنج وتملكت انطاكية ، فجعل الامير معن يغزوم ويطلق الغارة عليهم بالعرب الايوبية فغرم امرهم . »

وقد يكون انتساب المعنيين ، في اول امرهم ، الى العرب الايوبية هو الذي ضلّس بعض المؤرخين فخلطوا بينهم وبين الايوبيين الاكراد وجعلوهم من سلالتهم ؛ في حين انهم اقدم من السلالة الايوبية التي بدأت بتولي صلاح الدين الايوبي السلطنة في سنة ١١٧١ ، اي بعد قدوم المعنيين الى لبنان باثنتين وخمسين سنة .

وفي سنة ١١١٧ زحف الصليبيون من بيت المقدس الى الجبل الاسود ، - وهو ما يسمى ايضاً بالجبل الاقرع ، يقع

جنوبي نهر العاصي ويطل على انطاكية واللاذقية - وكان يقودهم ملكهم بلدوين ، فأمسك الامير معن عليهم الطريق ، وكان معه جماعة اتراك من اصحاب غازي امير الترك ، فدارت معركة حامية انكسر فيها العرب والترك ، لأن عدد جيش الفرنجة كان ، على حد قول الامير حيدر ، خمسين ألفاً ونيّفأً ، وكان عدد جيش العرب الايوبية والترك دون العشرة آلاف ، فرحل الامير معن ، على اثر ذلك ، بالعرب الايوبية الى سهل البقاع ونزل فيه ، ثم انطلق الى دمشق ، ودخل على صاحبها طغتكين ، فرحب به وقرّبه اليه ، وخلع عليه ، وحالفه ؛ ثم امره بأن يقوم بعشيرته من البقاع ، ويصعد من لبنان الى جبال العالية المشرفة على الساحل ، ويتخذها حصناً يغير منه على الفرنج النازلين في السواحل .

وفي سنة ١١١٩ نهض الامير معن من البقاع بعشيرته وتوجه الى جبل الشوف .

ويقول بعض المؤرخين إن الامير معنأً نزل بعشيرته يوم جاء الشوف ، في بعقلين ، غير ان الخالدي يقول في سياق كلامه على نسب آل معن : « ان الامير معنأً سكن دير القمر . » وسواء كان نزوله في بعقلين ، او في دير القمر ، البلدين الجارين ، فإنه اتخذ الشوف مقاماً له ولعشيرته .

وتروي اسطورة حلولهم فيه : ان الامير معناً ، لما قدم الشوف خيّم في صحراء بعقلين ؛ وكان الجبل ، في ذلك العهد ، من اقطاعات الامراء التنوخيين المقيمين في عبيه ، وهم اول القبائل العربية التي دخلت لبنان ؛ فرأى هذا الامير ان يزورهم ويستوحيهم أرضاً يقيم فيها بعشيرته ، ولاسيما انه كان مصبراً فيهم ، فقد تزوج ، وهو في الديار الحلبية ، ابنة الامير نعمان التنوخي من معرفة النعمان ؛ فانطلق الى عبيه عاصمتهم ليزورهم فيها .

وكان زعيم التنوخيين ، يومئذ ، الامير بُحْضَر ، فرحب بضيفه واكرم مشواه ، وتحالفا على ان يكونا على الافرنج يداً واحدة . وحينما اطعاه الامير معن على ما يريد ، صعد به الامير بجتر الى المُنْطِير - وهو رابية تنهض فوق عبيه يناهز علوها المئة متر أو يُنيف - واستشرف منها الاراضي الواقعة الى الجنوب الشرقي بين نهري الصفا والباروك ، وكانت فقراً بلقماً ، وقال له باللهجة العامية « شوف » اي انظر الى هذه الاراضي ، فهي لك ؛ فسميت منذ ذلك اليوم باسم الشوف .

على ان في هذه الاسطورة ، كما في سائر الاساطير ، موضعاً للثقة ، ذاك بأن تلك الاراضي لم تكن فقراً بلقماً ، وانما كان فيها قرى كثيرة عامرة ، بدليل ان هذه القرى ، التي لا تزال قائمة الى اليوم ، تحمل كلها اسامي آرامية ، اي سريانية ، تبوهن

على توغّلها في القدم ؛ وقول الخالدي ان الامير معناً نزل دير
القمر دليل ايضاً على ان تلك المنطقة لم تكن مقفرة .
ثم ان لفظه شوف - وان اجتهد بعض الباحثين في ارجاعها
الى اصول عربية ، فجعلوها من فعل الامر « أَشَفِ » من اشفى
عليه اذا اشرف عليه ، او جعلوها محرّفة عن لفظه الجوف
ملفوظة الجيم مع الاشمام بالضم ، او عن لفظه الشعوف ، وهي
وؤوس الجبال - هي اقدم من المعنيين بزمان ؛ ويرجع الاستاذ
عيسى اسكندر المملوف في كتابه « تاريخ فخر الدين الثاني » انها
تحريف لفظه سريانية من معانيها الشرفة والقمّة ، اي رأس الجبل .
عاد الامير معن ، بعد ذلك ، الى قومه في صحراء بعقلين ،
فأرسل اليه زهر الدين ، او ظهير الدين ، حفيد الامير بختو ،
اناساً من عنده بنوا له وخاصته منازل ، فسكنها واعتزل
المضارب التي لا تصلح للسكنى في تلك الجبال الباردة ، الكثيرة
المواصف والتلوج ؛ وجعل بعد ذلك يحث اصحابه وقومه على
بناء المنازل ، فشاع البناء في الشوف وعمرت تلك النواحي .
وقد زعم بعض المؤرخين ان الامير منسأ هو الذي اختط
بعقلين ، في حين ان هذه البلدة قديمة جداً بدليل اسمها السرياني
المؤلف من الباء ، ومعناها : بيت ، ومن عقلين ، ومعناها
عاقلون ، او عقّال . ولهذا الاسم ايضاً معنى آخر هو « المعوج » ،
وقد تكون « المعقيلة » سميت هكذا لاعوجاجها .

ولا يعقل ان يكون الامير معن عربياً ويسمى البلدة التي
يخطها باسم سرياني ؛ ثم ان تاريخ الصليبيين يقول : ان هذه
البلدة كانت من اقطاعاتهم ؛ ويقول الاستاذ معلوف في تعليقه
على الصفحة الواحدة والثلاثين من تاريخه «الامير فخر الدين الثاني» :
«ان لبنان كان في عهد الحروب الصليبية إمارات افرنجية ...
الى ان يقول : « واشتهرت إذ ذاك قرى مثل المختارة وبعقلين
وجزين ودير القمر » ؛ وقد ذكر بعقلين صالح بن يحيى في
كتابه «تاريخ بيروت» بين القرى التي كانت من املاك أسرته
التنوخية ؛ وكلها ذات اسماء سريانية . فبعقلين اذاً اقدم من
المعنيين ، على انها ربما كانت خراباً فرمها الامير معن يوم
جاءها ؛ او ربما كانت قرية صغيرة فكبرها بما شيده فيها وابقى
لها اسمها المشهورة به .

تدثر الامير معن الشوف ، واستعمر وحفدته تلك المنطقة
اللبنانية ، فتقاطر اليها الناس من انحاء حوران ودمشق وحلب ،
وسائر الانحاء اللبنانية ، لما عرف به المعنيون من حسن الجوار
ومراعاة الجار والمحاماة عنه ، فازدهرت أيتها ازدهار .

وفي سنة ١١٧٣ قدم الشهابيون من حوران الى وادي
التيم بقيادة زعيمهم الامير منقذ ؛ والشهابيون عرب اقحاح
من قبيلة بني مخزوم القرشية . وكان وادي التيم ، يوم جاؤوه ،

بيد الفرنجة ، فحاربهم الشهابيون واستظهروا عليهم واجلوه
عنه .

وكان يومئذ على الشوف الامير يونس المعني ، تولاّه بعد
وفاة ابيه الامير معن في سنة ١١٤٩ ؛ فعرف بما فعله الشهابيون
بالفرنجية ، فأعجب هؤلاء الجيران البواسل ونهض في حفل
عظيم الى وادي التميم ليرحب بهم ويهنئهم ؛ فاستقبله الامير
منقذ اجل استقبال ، وانزله في ضيافته ثلاثة ايام ، وفقاً
للتقاليد العربية .

ولم يمض زمن على عودة الامير يونس الى بلاده ، حتى
دعا الامير منقذاً الى ضيافته ، فلبى الدعوة وركب بألفي
فارس من صفوة قومه ، وسار يصحبه ولده الامير محمد ،
فتى في السادسة عشرة من سنه ؛ وصفه الامير حيدر « بأنه
كان ولدأ نجيباً ، وشاباً جميلاً ، فصيح اللسان » .

ولما دخل الامير منقذ الشوف أناخ جماله قرب ينبوع في
صروده ، وربما كان الامير يونس قد دعاه الى ذلك المكان
المعروف بينبوع الباروك ، لجمال موقعه وطيب هوائه ومائه .
وتقول التقاليد ان المكان الذي أناخ الامير منقذ فيه جماله
سمي الباروك ، وِزانَ فاعول من برك الجميل ، والبروك
للجمال كالجوس للانسان .

غير ان بعض الباحثين يقول : ان لفظه الباروك سريانية
ومعناها الرابض ؛ وغني عن البيان ان المعنى السرياني يرادف
المعنى العربي .

ويحتجون لسريانية هذا الاسم باسماء القرى المحيطة بالباروك
كبتلون مثلاً ومعنى اسمها : بيت التلّ الصغير ؛ وكفرنبرخ ،
ومعنى اسمها : قرية نُبارك ، وغيرها ...

استقبل الامير يونس ضيفه الامير منقذاً وولده محمداً
على ينبوع الباروك ، وكان قد اعدّ له هنالك وليمة فاخرة ،
ومهرجاناً فخماً ؛ فلبثوا هنالك ثلاثة ايام يغتمون اللذات
والافراح ، على حدّ قول الامير حيدر في تاريخه ؛ وكان
الفرسان ، في اثناء ذلك ، يتبارون بألعاب الفروسية ، وهم
على ظهور خيولهم ، والرُجلان يحدون ، والنساء يُزغردن
ويغنين ويرقصن ؛ عيدٌ لم تشهد البلاد نظيره من ذي قبل .

وبعد مضي الثلاثة الايام سار الامير يونس بضيفيه ورجالهما
الى بعقلين عاصمته ، فدخلوها في موكب حافل .

واتفق ان اطلّت الاميرة طيّبة ، بنت الامير يونس ،
من شرفتها ، لتشهد الموكب ؛ وكانت صبيّة في الرابعة عشرة ،
ذات حسن فتان ، وجمال رائع ؛ ويظهر من كلام المؤرخين
انها لم تكن مقتّعة ، فحانت من الامير محمد التفاتة فراآها في

رونق بهاؤها وريّان صباحها ، فنزلت في حبة قلبه ، وافتن بها ،
وصار لا يفكر الا فيها ، وجعل يتوقع ما يستي له ان يلح
لوالدها بما في نفسه منها .

بيد ان للمحبين لهاً رحيماً يسهر عليهم ويسهل أمورهم ؛
فبينما كانوا ذات يوم قاعدين الى السّماط لتناول الطعام ،
اخذ الامير يونس لقمة وناولها الامير محمداً ؛ وتلقم الضيف
على الموائد عادة لا يزال اللبنانيون متمسكين بها حتى اليوم ،
وهم يُرفقون اللقمة بوصف بحسّنها في عيون الأضياف . هكذا
فعل الامير يونس ؛ ناول الامير محمداً تلك اللقمة وهو يقول :
خذها ! إنها طيّبة .

وربما كان الامير يونس قد شعر بشيء من أمر الامير محمد ،
او انه استحلاه زوجاً لبنته ، فأناه بهذه اللفظة التي توافق اسمها
ليفسح له مجال الكلام عليها .

ومهما كانت الحال فإن الامير محمداً رأى ان الفرصة سنحت
له ليُعرب عمّا في نفسه من الاميرة طيّبة ، فتناولها واجابه
بآية قرآنية من سورة النور : « الطيّبات للطيبين » فأدرك
الامير يونس مراده ، واجابه ، من فوره ، بآية من سورة
الاحزاب : إنّنا ازوجناكها يا محمد . فتمّ بذلك زواج الاميرة
المعنية بالامير الشهابي .

وثمّة رواية أخرى تقول : ان الامير محمداً بينا كان في دار الامير يونس ، وقعت عينه اتفاقاً على احدى النوافذ ، فشاهد طيبة فيها ، فاستلب فؤاده حسنّها وبراءتها ، وشغف بها ، ولكنه كتم امره . وذات يوم خرج واباه والامير يونس الى بعض ضواحي بعقابين ، يطلبون التزعة ، فجلسوا هنالك الى يدبوع تحفّ به نباتات مزهرة ، فأعجب الملكان الامير منقداً ، فقال : ان المياه عذبة ! واردف ابنه محمد قائلاً : والارض طيبة ! فأجابه الامير يونس : وأنت طيب يا محمد . ورأى الامير محمد ان الفرصة مواتية لبشير الى ما في نفسه من طيبة ، فقال : « الطيبون للطيبات . »

غير ان الامير يونس لم يدرك ما في كلامه من تلميح ، لأنه لم يكن يعلم انه رأى ابنته .

ولما قعدوا الى الطعام تناول الامير يونس لقمة وقدمها الى الامير محمد فقال له : ان كانت طيبة اخذتها ، ثم تناولها من يده وأكلها ، ولكن قصده لم ينكشف ايضاً في هذه المرة للامير يونس .

ثم انهم ، بعد الطعام ، اخذوا باطراف الاحاديث بينهم ، وكان الامير محمد قد خشي ان يكون الامير يونس قد شعر بأمره وأظهر تجاهله له ، فرأى ان يعتذر اليه عمّا قد يكون

بدر منه ولم يَرُقِ الامير يونس ، فربّت هذا على زنده قائلاً :
طِيب نفساً ! انك احسنت في كل ما قلت وصنعت .

وأنسى للامير محمد ان يطيب نفساً ، ولم يوعد بعدُ بطِيبَة ؟
غير انه لم ييأس ، وعاد الى التلميح ، فطالب من الامير يونس
ان يشرح له الآية « الطيبات للطيبين » . وكان تكرر
لفظة طِيبَة كشف مراده للامير يونس ، فابتسم له وقال :
ازوجنا كلها يا محمد .

ثم سأله الامير يونس : ألك اختٌ ؟ فأجاب عنه والده
الامير منقذ قائلاً : نعم ! وهي اصغر سنّاً منه واسمها سعاد ،
وقد زوجها من ولدك يوسف . فأعلن الامير يوسف المعنى
قبوله ، وتمّ عقد الخطبتين ، ثم زفّت الاميرتان كل واحدة الى
عروسها ، بعد عودة الامير منقذ وولده الى حاصبيا ، فزاد
الحب ، كما قال الامير حيدر ، بين المعنيين والشهابيين . وكان
زواج الاميرة طِيبَة فاتحة لزيجات عديدة توالى خلال زهاء
خمسة قرون ، آخرها الزواجان اللذان كانا السبب المباشر الذي
أدّى الى وراثة الشهابيين ، وهم اصحاب وادي التميم ، لاقطاعات
المعنيين في لبنان والحكم فيها .

هذان الزواجان هما زواج ابنة الامير ملحم بن يونس
اخي فخر الدين الثاني بالامير حسن الشهابي ، وكان منه الامير

بشير الاول ؛ وزواج اخت الامير احمد ، آخر المعنيين ،
بالامير موسى بن منصور الشهابي ، وكان منه الامير حيدر ،
جدّ الامراء الشهابيين في لبنان .

وتفصيل الامر : انه لما توفي الامير احمد ، في دير القمر
سنة ١٦٩٧ ، لم يترك عقباً يخلفه ، فانقرضت بموته السلالة المعنية ،
وبقي لبنان دون امير ، فاجتمع مناصب البلاد ، وهم مشايخ
الاقطاعات السبع : الشوف والمناصف والعرقوب والجرد والتمن
والشخار والغرب ، واختاروا الامير بشيراً الشهابي خلفاً ،
لانّ أمه معنيّة ، واستقدموه من وادي التيم وولوه الحكم .
فتولاه تسع سنوات توفي بعدها في صفد ؛ قيل : ان ابناء
أعمامه ، أمراء حاصبيا ، سئوه ليصتروا الحكم الى الامير
حيدر ابن بنت الامير احمد المعني ، لأنه أولى بوراثه جده .

وكان الباب العالي يريد هذا الامير ، لأن الامير حسيناً
ابن الامير فخر الدين - وهو الذي بقي حياً وحده بعد مقتل
ابيه واخوته ، ورفض ان يعود الى ولاية ابيه - كان قد
طلب الحكم للأمير حيدر بعد جده الامير احمد ، ووافق الباب
العالي على طلبه ؛ فاستوسق بعد ذلك الامر للأمير حيدر ولسلالته
من بعده .

فلولا الاميرة طيِّبة لما نشأت تلك القرابة الوثيقة العرى

بين المعنيين والشهابيين ، ولا كانت توالت بينهم تلك الزيجات
التي زادت صلة الرَّحِيمِ توثقاً ، ولما كان للأسرة الشهابية حق
في ارث المعنيين ؛ وربما كان وجه التاريخ اللبناني قد تغير عما
صار اليه بعد انقراض آل معن ، او ربما كان الحكم آل إلى
الامراء اليمنيين من آل علم الدين بدلاً من الشهابيين ؛ وكثيراً
ما تداوله هؤلاء الامراء في فترات من الزمن بمساعدة ولاة
الدولة العثمانية ، ومناصرة الاحزاب اللبنانية المعارضة للقبليين ،
تلك الاحزاب التي ناصبت المعنيين اشد العداة حتى آخر امير منهم .

ام قرقماز المعنية

بين وجوه المعنيات وجه كريم سكت عنه المؤرخون إمتاً
لجلهم اياه ، او لعدم تدقيقهم في زوايا التاريخ اللبناني ؛ وكلا
الامرین لا يدل على حسن العناية في تقصي الحوادث التاريخية ،
ولا في إيرادها .

هذا الوجه هو وجه الاميرة التي غيرها التاريخ اللبناني
وبخسها حقها ؛ ولسنا نعلم عنها ، في اول امرها ، الا انها زوجة
فخر الدين الاول ، وأم ولده قرقماز والد فخر الدين الثاني .
وفخر الدين الاول هو ابن الامير عثمان المعني الذي
انحصرت فيه الامارة المعنية بعد موت اخيه الامير يوسف عقيماً
سنة ١٤٧٠ ، وموت والده الامير ملحم المعني ؛ ثم توفي الامير
عثمان في اواخر القرن الرابع عشر ، وانتقلت الامارة الى ولده
فخر الدين .

وكان المعنيون قبل هذا الامير يمينين ، غير ان النزاع الذي
حصل بينه وبين الامير جمال الدين الارسلاني ، صاحب العرب ،
من اجل ترعّم الحزب اليمني ، جعله ينفصل عن هذا الحزب

وينحاز الى القيسيين ، ويتولّى زعامة حزبهم ، فتقبّس المعنيون
كلهم منذ ذلك الحين .

كانت الاميرة ام قرقماز تقيم وزوجها فخر الدين في بعقلين
كرسي حكم المعنيين الاول ؛ وعلى ان هذا الامير ومتم دير
القمر بعد ان كانت قد خربت على اثر الحروب الصليبية ، أبقى
كرسي حكمه في بعقلين . ولعلّ الذي جعله يعيد بناء دير
القمر وجود ينبوع الشالوط فيها ، لأن بعقلين لا مياه في ارضها ،
وانما كان سكانها يشربون بما يتجمع من مياه الامطار في البرك
والاحواض ؛ وربما كان السبب الذي دفعه الى ترميمها وقوعها
في سفح جبل عالٍ يحمبها الريح الشمالية شتاءً ، فاتخذ منها
مشقّي له مع ابقائه دست الحكم في بعقلين .

وقد شيد في سنة ١٤٩٣ ، وهي السنة التي يرجّح انه اعاد
فيها بناء الدير ، جامعاً في وسط البلدة ، ذا مأذنة عالية ،
ونقش على بلاطة مثبتة في الجدار ، القائم جنوب الباب الغربي
منه ، آية من سورة النور ، وهي : « في بيوتِ اَئِنَّ اللّهُ ان
تُرفعَ ويُذكرَ فيها اسمه ، يُسَبِّحُ له فيها بالغدو والآصال ،
رجالٌ لا تُلهمهم تجارة ولا بيع عن ذكرِ اللّهِ . » ووضع
تحت الآية اسمه وتاريخ البناء في سنة ١٨٩٩ هـ ، اي ١٤٩٣ م ،
وهذا الجامع لا يزال قائماً حتى اليوم هازئاً بأحداث الايام
والسنين ، شاهداً بعظمة بانيه .

وفخر الدين الاول هو الذي لقبه السلطان سليم الاول
العثماني بلقب سلطان البرّ ؛ ذلك ان السلطان سليماً بعد ان
تغلّب على ملك العجم اسماعيل شاه صفوي ، في سنة ١٥١٤ ،
واستولى على بلاده ، عزم على ان يواصل زحفه الى سوريا ،
فتوجّس المماليك الشركسة ، ملوك مصر وسوريا ، خوفاً منه ،
وراعهم ما أُحيل اليهم من انه يسعى الى كسر شوكتهم ،
وانتزاع امارة الحج وحراسته من يدهم ، فطفقوا يأتمرون
وشاه العجم به ، وأجمعوا على ان ينازلوه معاً ويردّوه عن
غايته .

وكان سلطان الشركسة في ذلك العهد الملك الاشرف
قانسوه الغوري ، فبعث رجالاً قطعوا الطريق على القوافل ،
التي كانت تحمل المؤن والذخائر من الاستانة الى جيش السلطان
سليم في العجم ، فقلّ الزاد والذخيرة عند هذا الجيش ، ونزل
به ضيق شديد .

وعرف السلطان سليم ان الملك الاشرف هو الذي قطع
الطريق على قوافله ، وتبيّن له ان عمله هذا لم يكن الا تحريشاً ،
فزحف بجيشه الى محاربهته .

ولما بلغ الملك الاشرف زحف السلطان ، خرج بالعساكر
المصرية الى لقائه ، وكتب الى نائبه في دمشق جان بُردى

الغزالي ، وثابه في حلب خير بك ، ان يوافياه بعساكرهما ،
ثم استنجد أمراء لبنان وروادي التميم ، فجاهد الامير فخر الدين
حاكم الشوف ، والامير جمال الدين التنوخي حاكم الغرب ،
والامير عساف التركماني حاكم كسروان ، والامير منصور
الشهابي حاكم وادي التميم ؛ فالتقوا والسلطان سليمان في مرج
دابق شمالي حلب .

على ان أمراء لبنان لم يشتركوا ، بادي ذي بدء ، في
القتال ؛ وإنما اجتمعوا فيما بينهم ، وتشاوروا فيما يفعلون ؟
فأشار عليهم الامير فخر الدين بأن يتوكلوا ليروا لمن تكون
الغلبة ، فيقاتلوا معه .

وما لبثت كفة السلطان سليم ان رجحت ، فأنحازوا اليه
وقاتلوا معه ، حتى اذا انكسرت العساكر المصرية ، فرّ الغزالي
وخير بك وانضمّا بمن معهما ، من الديار الشامية ، الى السلطان ،
فتأثر الغوري من خيانتها ، وانتحر بأن طعن صدره بخنجره ؛
وقيل : ان احد الجنود قتله ؛ وقيل : بل أغمي عليه لشدة
تأثره ، فسقط عن ظهر فرسه ، فداسته سنايك الحبل .

ثم فتح السلطان سليم دمشق في سنة ١٥١٦ ، واستقدم
اليه ، وهو في دمشق ، أمراء لبنان ، فذهبوا اليه ، ما عدا
التنوخيين لأنهم كانوا حلفاء للمماليك الشركسة ؛ ولما مثلوا

امامه ، تقدّمهم الامير فخر الدين ودعا للسلطان دعاءً بليغاً
لقبّه فيه بأمر المؤمنين .

ويظهر من تلقبّه اياه بأمر المؤمنين ، ان دعوة هذا السلطان
لأمراء لبنان اليه ، كانت بعد فتحه مصر ، وانتزاعه الخلافة من
محمد المتوكل على الله ، الثالث ، الخليفة الثامن عشر من الدولة
العباسية في مصر ، وآخر الخلفاء العباسيين .

ولمّا أتمّ الامير دعاءه دنا من السلطان وقبّل قفطانه ،
فسأل السلطان خيرَ بك عنه ، فأخبره أنه أمير من سكان البرّ
يتولى امر فرى واراض في جبال ضيقة المذاهب ، وعرة
المسالك ، فأحبّه السلطان وقرّبه وأنعم عليه ، ثم أقرّ ولايته
على الشوف ، وأوصاه بحسن السياسة والرّفق بالرعية ، ورتّب
عليه الاموال الاميرية ، وأعطاه خطّاً شريفاً بها . وكان من
شدة إعجابيه به أن لقبّه بسلطان البرّ ، فانطلق هذا اللقب عليه ،
ونفذت كلمته في امراء لبنان ، ووقعت هيئته في قلوبهم .

غير ان حبّ هذا السلطان له لم يردّ عنه حسد الولاة العثمانيين
في سوريا ، ولا كيدهم ومناواتهم . وقد دفع الحسد ، في سنة
١٥٠٤ ، نائب دمشق الى تجهيز عسكر لمحاربتّه ، جعل قيادته
لرجل يقال له جوان بك ، فالتقاه الامير برجال الشوف الى
البقاع ، ودارت بينهما معركة عند جسر كامد ، أو جسر

القرعون ، قتل فيها القائد جوان بك ، وانهزم العسكر الشامي
تاركاً في ميدان المعركة ثلاثمائة قتيل .

ورأى خصومه ومناجزوه العداوة ان لا سبيل الى
النيل منه بمحاربتهم اياه ، فلجأوا الى الكيد له ليقتلوا عليه .
وتقول بعض المذكرات الاجنبية : انه لم يمِتْ ، كما قال المؤرخون ،
حتفَ انفه ، وانما بعث اليه احد الولاة بمن دس له السم ،
فبات مسموماً في سنة ١٥٤٤ ؛ فانتقل بموته حكم الشوف الى
ولده قرقماز .

كانت ايام الامير قرقماز ملأى بالفتن والاضطرابات ،
فكفاح من اجل النفوذ الحزبي بين القيسيين والبيمينين في
الشوف ، وتنازع بين آل عساف وآل سيفا على الحكم في
الشمال ، ولصوص نعت وتسلب عابري الطرق . ولم يكن
للامير قرقماز على شجاعته ، وعزة نفسه ، هيبه والده ولا
سؤدده ، ولم يكن امراء لبنان ليطيعوا ان يكون آمرهم ، كما
كان ابوه ، فجعلوا يتحينون الفرص ليحكروا به ، وينتزعوا
منه اقطاعه ؛ وقد تسنى لهم ان يكيدوه يوم وقعت حادثة
نهب الاموال السلطانية في سنة ١٥٨٤ .

وقعت هذه الحادثة في جون عكار ؛ وذلك ان قافلة من
الانكشارية كانت تنقل الاموال الاميرية (خزانة السلطان)

من طرابلس الى الاستانة ، فتصدى لها ، في جون عكار ، بعض
لصوص الطرق فسلبوها . ولما كان ذلك المكان تابعاً لاقطاعة
يوسف باشا سيفا ، امر الباب العالي جعفر باشا الطواشي ، حاكم
طرابلس في ذلك العهد ، ان يصادر آل سيفا على المال المسلوب ؛
ويظهر ان جعفر باشا كان يحمل في نفسه ضغينة على السيفيين ،
فلم يكتفِ بطلب المال منهم ، وانما اجتاح ارضهم واحرق
منازلهم . ثم رأى ان يتفادى من مؤاخذه الاستانة له بما فعل ،
فبعث اليها يتهم آل عساف امراء كسروان ، وآل معين
امراء الشوف ، بأنهم يعيشون في البلاد فساداً ، فأمر السلطان
مراد الوزير ابراهيم باشا ، والي مصر ، بأن يتوجه الى لبنان
ليقتص من المعتدين على امواله ، ومن العائثين فساداً .

قدم هذا الوزير بعسكر جرّار جمعه من مصر وقبرص
وحلب ودمشق ، وخيّم من البقاع في مرج عرجموش ،
بين قب الياس وكرك نوح ، وبعث الى حكام اقطاعات لبنان
ان يسلموا اليه سالي الحزنة السلطانية ، وضرب عليهم نفقات
جيشه ، وطلبهم الى مقابله . فبادر اليه كل من الامير محمد
ابن جمال الدين اليميني من عرمون الغرب ، وابن عمه الامير
منذر التنوخي من عبيه ، والامير محمد بن عساف من غزير ،
يقدمون خضوعهم ويبرّئون انفسهم ؛ ويتصلون من التبعة .

وكان يوسف باشا سيفاً قد اتفق وصديقه الشيخ البدوي
منصور بن الفريخ على الصاق تهمة السلب بدروز الشوف ،
وحمل الوزير على مصادرة الامير قرقماز ؛ فأمر الوزير بأن
تمسك الطريق على الدروز ، وانتظر ان يأتي اليه ابن معن
ليبرئ نفسه ، فلم يفعل . فبعث اليه يستقدمه ، فأجابه بجواب
ملؤه التعظيم ، ولكنه رفض الذهاب اليه . فأغضب رفضه
الوزير ، فأرسل عسكريه لبحرق القرى اللبنانية ويدهرها وينهبها ،
حتى وصل الى حدود اقطاع ابن معن .

ثم انحدر الوزير من البقاع الى صوفر ، فجهاه وفد من
عقال الدروز ووجهاتهم يتصلون بما عزي اليهم ، فقدر بهم .
ويقول المؤرخ اللبناني ابن سباط : انه قتل منهم ستائة
وجل ، وصادرهم بمليون غرش . اما مارياتي الايطالي فيقول :
انه قتل ثلاثمائة ، وسلخ جلد حاكم دير القمر ، وهو حي ،
ولكنه لم يقل من كان ذلك الحاكم .

ومهما كان الأمر فإن غدر الوزير بعقال الدروز كان فظيماً ،
وفعله بالقرى اللبنانية أفظع .

ورأى الامير نفسه عاجزاً عن رد هذه النكبة عن أهل
بلاده ؛ وأبت عليه عزة نفسه ان ينزل منزلة الامراء الآخرين ،
الذين تركوه وحده وذهبوا الى الوزير يتسكعون امامه

متصاغرين ، فكان نصيبهم الاعتقال . فلبجأ الى شريف تيرون
ينتظر ان يشبع الوزير من التحريق والتقتيل والتدمير فيعود
من حيث أتى .

وهنا برزت الاميرة ام قرقماز ، من خدرها ، الى ميدان
السياسة الوطنية ؛ ولسنا نعلم أكان بروزها بإيعاز من ولدها
أم انها لم تُطيق رؤبة ما حلّ بوطنها من شقاء وويل . وكانت
تعلم ان الوزير لم يُسجن في البلاد ذلك الاثخان المُفطع إلا
لأنه يُريد ان يُرغم ابنها على ان يأتيه صاعراً ؛ ونفس ابنها
تأبى التصاغر ولو كان في إباؤها كأس الحمام ؛ فاستصحت نقرأ
من رجالات الشوف ، وانطلقت بهم الى الوزير ومثلت امامه
بجراحة ، وأعلمته بأن ولدها لن يأتي اليه ؛ وعنتفته على اجتياحه
الشوف وفتكه في ابناؤه ؛ ثم قالت له : ان السلطان سليمان
الفاتح اثبت للمعنيين إمارتهم ، وأقرهم في إقطاعاتهم ، فلن
يستطيع أحدٌ ان ينزعها منهم ، او ينتزعهم من لبنان ما دام
واحد منهم ، ولو رضيعاً ، في قيد الحياة .

وكان الوزير أخذ بجراتها وبلاغة منطقها وقوة حجتها ،
فأكرم مثواها ، وبالغ في احترامها ؛ ثم أمر بأن يوثنى بمناديل
الأمان ، فأتي بثلاثة عقد منها واحداً في عنقه ، وأعطى أم
قرقماز اثنين ، تعقد واحداً منهما في عنقها ، وتسلم الآخر

الى ولدها ؛ وقال لها : إنه عفا عن الشوف وتناسى ما كان
من موقف اميره تجاهه ؛ فليات اليه يلاقى ما هو أهل له من
تكريم ورعاية .

ولكن الامير فرقماز لم يكن ، على ما يظهر ، ليشق بأمان
الوزير ، وربما كان على صواب من عدم ثقته به ، ففضل الموت
في مغارته عزيزاً على ان يقف على باب الوزير ذليلاً .

هذا كل ما امكن معرفته عن هذه الاميرة اللبنانية الكريمة ،
ولا ندري ما صارت اليه بعد موت ولدها ، فليس في تاريخنا
اثر لذكرها ، ولا بد من ان تكون قد عاشت زمناً بعده ، وبعد
تولي حفيدها فخر الدين الثاني ؛ ولكنها على عظمتها وشجاعته
وغيرتها على قومها ووطنها غفل عنها التاريخ ، سامح الله تاريخ
لبنان ، ما أكثر ما فيه من نقص واهمال ونسيان !

نسب التنوخية

لعلّ اجمل صفحة في تاريخ اميرات لبنان ، صفحة الاميرة
نسب التنوخية ، والدة الامير فخر الدين الثاني . هذه الاميرة ،
التي كان يلقبها المؤرخون الاجانب بالسلطانة ، ويلقبها اللبنانيون
بالست الكبيرة ، كانت موضع حب اهل لبنان واحترامهم .
وقد بلغ من اعجابهم بسديد آرائها ، وبلاغة منطقتها ، وحسن
سياستها وشجاعتها ، أن انزلوها منزلة الانبياء ، على حدّ تعبير
سانتي ، احد مهندسي البعثة التي ارسلها الى لبنان قزما الثاني
غراندوق توسكانا .

ولدت الاميرة نسب في عيبه ، في الاسرة التنوخية ، اول
اسرة عربية دخلت لبنان وتولّت الامارة فيه منذ اوائل
القرن التاسع الى اوائل القرن الثاني عشر . ولم يذكر المؤرخون
زمن مولدها ، ولكن وفاتها في سنة ١٦٣٣ ، عن سبعة
وثمانين عاماً ، قدلنا على انها وُلدت في سنة ١٥٤٦ ، وكذلك
لم يذكرها من هو والدها ، وانما ذكروا اخاها الأمير سيف الدين
التنوشي ، أحد الأمراء التنوخيين القيسيين الأربعة ، الذين

أولوا في عييه، سنة ١٦٣٣، وليمة للأمير علي علم الدين البيهقي،
فغدر بهم وقتلهم وأولادهم الثلاثة، فانقرضت بمقتلهم الامارة
التنوخية .

وحوالى سنة ١٥٧٠ تزوجت الأميرة نسب الأمير قرقماز
سليل الاسرة المعنية، فولدت له ولدين ذكرين : فخر الدين
الثاني في سنة ١٧٥٢، ويونس في سنة لم يذكرها المؤرخون .
ولما وقعت حادثة سلب الأموال السلطانية في جون عكار،
وما تبعها من ويلات على الشوف، توفي الأمير قرقماز في
مغارة الشقيف لشدة تأثره وحزنه على ما حلّ ببلاده وابنائها .
ويقال أيضاً : ان الوزير ابراهيم باشا اهتدى الى مخبئه، فأوقد
في مدخل المغارة حطباً كثيراً أخضر، فامتلأت المغارة دخاناً،
وفسد هواؤها، ومات الأمير اختناقاً .

وكان ولداه: فخر الدين ويونس لا يزالان قاصرين، ففخر الدين
في الثانية عشرة، ويونس ما بين التاسعة والعاشر، فخشيت
أمه أن يشي بهما البيهقيون، فيقعا في يد الباشا، فيفتك بهما،
ورأت أن تبعدهما عن الشوف وتخبئهما في مكان حريز .
ويختلف المؤرخون في أمر تخبئتهما ونشأتها، فالأمير حيدر

يقتصر على قوله : إن خالهما سيف الدين التنوخي عضدهما ،
بعد موت أبيهما ، وسلم إليهما حكم الشوف وقواهما بالمال
والرجال . ويقول أيضاً : إن الحاج كيوان مدبر أبيهما
حافظ على فخر الدين وحده ، فرباه في حضانة عائلته ، حتى
بلغ السادسة عشرة ، أما أخوه بونس فقد صرف خمس سنوات
بين حريم رجل درزي من البلاد .

غير أن الرواية المشهورة هي التي ذكرها الاستاذ عيسى
اسكندر المعلوم في كتابه «تاريخ فخر الدين الثاني» وملخصها :
إن أمهما نسب وشقيقها الأمير سيف الدين طلبا من الحاج
كيوان نعمة من دير القبر ، مدبر الأمير قرقماز ، إن يحببها
في إحدى ولايات اليمنيين ، فلا يكشف أمرها ، لأنه لن يخطر
على بال اليمنيين أن هذين الأميرين القيسيين يلجآن إلى ديارهم ؛
فحملها الحاج كيوان فاصداً بهما عكار . وحين وصوله بهما إلى
انظلياس صادف صديقه أبا صقر إبراهيم ابن الشدياق الحازن ،
فاقنعه هذا بأن يترك له الولدين ، وهو يحببها عنده . فرضي
الحاج كيوان ، وحملها أبو صقر إلى بلتونة ، وهي قرية
محاطة بالأشجار ، بعيدة عن الطريق العام ، فأخفاها فيها ،
ورباعها مع أولاده ، فبقيا عنده ست سنوات .

وكان خالهما سيف الدين قد ضمن ولاية أبيهما ، فلما

هدأت الحال ، وأمين عليها شرّ عمال الاستانة ، وشرّ
اليمينين ، استدعاهما اليه ، وحثك فخر الدين بشؤون الحكم
والادارة ، ودرّب الامير يونس على ضروب القتال ، وأعاد
اليهما ولايتهما .

تولى فخر الدين الامارة وهو حدثٌ رخص العود ، وكان
الى جانبيه عدوان قويان : الأمير منصور بن الفرّيج ، أمير
البقاع ، ويوسف باشا سيفا ، أمير عكار ، يترصده كلاهما
لينقض على اقطاعه فيقتك به ويستولي عليها . وما كان هذا
الأمر ليخفى على والدته الأميرة نسب ، التي وصفها المؤرخون
بتوقّد الذهن ، وأصالة الرأي ، وبُعد البصر في الأمور ،
فأخذت هذه الأميرة تسبّر بحكمتها ودرائتها ومقدرتها سفينة
ولدها الادارية والسياسية ، بين الأخطار المحدقة بها ، الى ان
مكنتها من الوصول الى الميناء الأمين .

قال الرحالة الانكليزي جورج ساندس في كلامه عليها :
« ان ولدها لم يكن بشرع بقتال ، ولا يقدم على عملٍ عظيم
الا بعد استرشاده اياها وأخذ رأيها . »

وقال سانتي : « ان الأمير فخر الدين يقرّر ما يعنّ له
مستلهاً رأي والدته . »

وكان حبّ الأمير لأمه واحترامه لها وتقديره لمواهبها ،

بما يُضرب به المثل ، فإن إشارة منها ، وهو في عزه وجبروته ، كانت كافية لأن تنزله على ارادتها . ويدلنا على ما كان لها عنده من تقدير واحترام ، أنه لما سافر الى توسكانا سلم اليها زمام الحكم في غيابه ، لا الى اخيه بونس ، ولا الى ولده علي ، وكلاهما كان أهلاً للاضطلاع بالأمر . ويرثي الاب قرألي في تاريخه « فخر الدين المعني الثاني » ان الأميرة نسب هي التي أهدت ابنها خطط ذلك المشروع العظيم الذي جمع به اقطاعات لبنان الخمس عشرة في وحدة هيمن عليها .

ومن عظيم ماتيتها ما صنعتها ، يوم كان ولدها غائباً في توسكانا ، وذلك ان احمد باشا الحافظ ، والي دمشق ، احد مبغضي فخر الدين ، زحف الى إقطاعة الأمير المعني ، في غيابه ، بخمسين الف مقاتل ، مزودين بتسع مدفعات ؛ ففصد اولاً الى قلعة نابلس ، فعجز عنها ؛ فحوال وجهه نحو قلعة الشقيف معتقداً ان فيها كنوز فخر الدين ، فامتنعت عليه ، وردته بدافعها ومنفجراتها ، التي كانت حاميتها تلقيها على جيشه فتفتك به . وقد مكث حياها اربعة وثمانين يوماً فلم ينل منها منالاً ، فحنق وعزم على تدمير الشوف . وكان تدمير الشوف كان الأمر الوحيد الذي يشفي غليل ولاية الدولة العثمانية عند عجزهم عن النيل من امرائه ؛ هكذا ارسل الحافظ رجاله يعيشون في

القرى، ويجرقون البيوت ، ويقطعون الأشجار . واغتم الفرصة يوسف باشا سيفاً عدو المعنيتين الألدّة ، فبعث ابنه حسيناً الى الشوف ودير القمر ليحرق ما شاء ، ويدمر قصر الأمير المعني ؛ فجزع الشوفيون والديريون ، وتوجّه المشايخ والأعيان الى الأمير يونس ، وطلبوا منه ان يرسل « الست الكبيرة » الى الحافظ لتتدارك الأمر بحكمتها وحسن سياستها ؛ فانطلقت الأميرة من بانياس ، وكانت فيها مع ابنها يونس ، وذلك في سنة ١٦١٤ ، وهي في السبعين من سنّها ، وصحبها ثلاثون من المشايخ العقّال .

ولما قابلت الحافظ أدهشته ببلاغتها وقوة حجتها ، وعرضت عليه ثلاثمائة ألف غرش تدفعها اليه على ان يرفع الحرق والتخريب عن الشوف ودير القمر ، ويبقي على القلاع ، ويترك البلاد وسأئنها . وكان البرد والمطر قد دهما الحافظ ونهكاه ؛ وجشّمه الأمير علي بن فخر الدين ورجاله الدروز خسائر بالغة بانقضاضاتهم الفجائية المتوالية على جيشه ؛ فلم يرَ منصرفاً عن القبول بما عرضته « الست الكبيرة » عليه ، فدفعت له قسماً من المال ، وكتبت على نفسها صكّاً بما بقي .

ويقول سانتي : « ان الاميرة ، لما دخلت على الحافظ ، أنبته بجرأة على تعمّده اهلاك رعايا السلطان ، وتخريب البلاد التي تدفع الجزية خزّانة الدولة . »

وبعد ان قبض الحافظ المال وجه احد اخصائه ، مصغفنى
قره آغا ، ليودّ العساكر عن الشوف ؛ فتوجه الى دير القمر ،
فوجد حسين باشا سيفاً قد أحرق القرى الشوفية ، وبعض بيوت
الدير ، وراه يغمس الحرق بالزيت ليحرق قصر فخر الدين فمنعه .
هكذا نجح الشوف ودير القمر من الحرق والتدمير بشجاعة
« الست الكبيرة » وتضحيتها .

اما الحافظ فإنه انصرف الى دمشق ، وحمل معه الاميرة ،
وجعلها في القلعة رهينة الى ان يوفى ما عليها من مال . ويقول
بعض المؤرخين ان ولدها يونس دفع هذا المال ضعفين ، ولكن
الحافظ لم يشأ ان يتركها ، فلبثت سجينه القلعة الى ان عُزل
الحافظ عن ولاية دمشق ، وتولاها بدلاً منه جر كس محمد باشا
بِكَلْبَرِيكي .

وكان هذا الوالي الجديد صنيعه الصدر الاعظم محمد باشا
القبودان ، صديق فخر الدين . فلم يكده يصل الى دمشق حتى
اطلق سراح الاميرة ، ثم اعادها مكرمة الى دير القمر ، وسلمت
اليها رسالة منه الى ولدها فخر الدين ، يطلعه فيها على ان صديقه
الصدر الاعظم نال له رضا السلطان عنه ، ويدعوه الى ان يعود
الى بلاده . لكن الامير بقي متردداً عن العودة الى ان كتبت
اليه أمه تقول :

« اننا بقينا محبوسين في قلعة الشام الى ان من الله علينا ،
فاطلقنا الحكم وعدنا الى دير القمر . وأنا اليوم امرأة كبيرة
اريد منك ان تجيء لأراك قبل موتي . » وحلقته بتربيتها له ان
يعود اليها ، فلم يبقَ في وسعه التأخر عن تلبية طلبها .

ولا بد من الاشارة الى ما في رسالتها من رمز الى شخصيتها:
شخصية الأميرة المتولية الحكم تتكلم بصيغة الجمع فتبدو في
كلماتها العزة والعظمة ؛ وشخصية الأم المشوقة الى ولدها تتكلم
بصيغة المفرد فيتلاً في كلامها حنان الأم ولوعتها لبُعد ولدها
عنها .

ولم تكن الاميرة ذات ادارة وسياسة وحزم وشجاعة
وحكمة فحسب ، وانما كانت كذلك ذات ثقافة ومعرفة .
قال الاب روجه الفرنسيكاني ، طبيب الامير فخر الدين ، في
تاريخه « الارض المقدسة » : « ان الامير كان متضلّعاً من
معرفة النجوم والفلسفة الحفية ، التي اخذها عن والدته . »
وربما اراد بالفلسفة الحفية الفلسفة الباطنية .

وقد توفيت الاميرة نسب في سنة ١٦٣٣ ، ولها من العمر
سبع وثمانون سنة . ولم يُشير احد من المؤرخين الى المكان
الذي دفنت فيه . والمرجح انها توفيت في قصر ولدها فخر
الدين في دير القمر ، فإذا صحّ هذا ، فتكون مدفونة في القبّة
المعنية التي لا تزال قائمة حتى اليوم .

و شدّ ما كان تأثير موتها مؤلماً للامير ؛ ويقول المؤرخون :
ان حزنه عليها كان شديداً ، وقد نشاءم بموتها لانها كانت
عليه بركة ويمناً ، وكانت عوناً له في أعماله ، وآراؤها هداية
له ، وخدماتها السياسية عظيمة تجاه ادارته ، سواء أفي غيابه
كان أم في حضوره .

ولا مناص من القول ان نجم سعد فخر الدين سطع ، بعد
وفاة الست الكبيرة ، سطعته الاخيرة ، وما عتّم ان انطفأ .

نساء فخر الدين وبناته

كان الامير فخر الدين الثاني أشدَّ امراء عِترته تمسكاً
بالزواج السياسي ، الذي كان زياً متبَعاً عند المعنيين ؛ فكان
على حدِّ قول الاب قرأني : « يشدُّ المحالفة باوصال القرابة »
اي انه لا يكاد يحالف اميراً من امراء الاقطاعات اللبنانية ،
إلا بادله الاصحار تمكيناً للحيلف الذي عُقد بينهما .

وإذا استثنينا الشهابيين ، الذين مكنت المصاهرات بينهم
وبين المعنيين أواصر الصداقة المخلصة ، لا نرى في كل من
أصهر اليهم المعنيون ، او أصهروا بالمعنيين ، من اخلص لهم
الودّ كل الاخلاص إلا عليّاً الظافري ، اخا خاصية زوج
فخر الدين الثاني ، وإلا بلك السيفي زوج ابنة الامير علي بن
فخر الدين .

على ان هذه المصاهرات ، وان تكن في اكثرها تنفق
وما قاله زفر بن الحارث ، رئيس القيسية في عهد الامويين :

وقد ينبئت المرعى على دمن الثرى ،
وتبقى حزازات النفوس كما هيا

أفاد منها فخر الدين فائدة جُلّسى في تأييد إمارته ، وتحقيق مشروعه في توحيد إقطاعات لبنان .

كان فخر الدين في الثامنة عشرة من سنّه حينما تولّى اماره الشوف بعد أبيه قرقماز ، في بعقلين عاصمة المعنيين الاولى ؛ فكان اول ما فكّر فيه خاله الامير سيف الدين التتوخي ، وأمه الاميرة نسب ، ان يضمنا سكوت الحزب اليميني عنه ، ان لم يكن في الامكان ضمان نصرته له ؛ ولن يكون ذلك بسوى إصهاره الى اليمينيين ، فزوّجاه ابنة الامير جمال الدين الارسلاني ، زعيم اليمينية . والامير جمال الدين هو الذي قلنا عنه ، فيما سبق ، انه تنازع والامير فخر الدين الاول رئاسة الحزب اليميني ، فأدّى هذا التنازع الى انفصال فخر الدين عن الحزب اليميني ، ذي الراية البيضاء ، وانضمامه الى الحزب القبلي ، ذي الراية الحمراء ، وترعّمه اياه .

ولم يذكر لنا التاريخ اسم هذه الاميرة الارسلانية ؛ واكن المؤرخين الغربيين يلقبونها بالسلطانة لأنها والدّة علي بكر فخر الدين ، ووليّ عهده .

ولم يكنف فخر الدين بهذه الاميرة ، وانما شاء ان يوسّع نطاق زواجه السياسي ، فتزوج كريمة احد كبار الدروز ، وأحسبها قيسية ، اراد ، بزواجه اياها ، ان يُقيم التوازن بين

الحزب الابيض والحزب الاحمر ، وان يرفع الشك في كونه
قد مال الى اصله اليمني .

ويقول كارلو ماشنجي، رئيس البعثة التي أوفدها الغراندوق
فئزما الثاني الى لبنان سنة ١٦١٤ ، في تقريره الذي رفعه الى
هذا الغراندوق : ان هذه الاميرة هي ابنة احد السناجق ،
اي امراء الالوية ، ولكنه لم يذكر اسمها .

وفي سنة ١٦٠٣ تزوج فخر الدين علوة بنت الأمير علي
سيفا ، اخت يوسف باشا سيفا ، وهي ام ولده حسين وبنته
ست النصر . وكان يأمل من زواجه بها ان يحوّر شيئاً مما في
قلب أخيها من البغض له والحسد منه ، فلم يستفد أمراً ؛ وانما
كان زواجه بها مثيلاً لأشدّ عداوة ضرب بها المثل في البلاد ،
حتى لم يكن من حديث إلا عنها ، بدليل ما قاله الشاعر دمشقي
ابراهيم بن محمد الاكرمي :

كحلّ عتّا ذكرَ ابن سيفا ومعن ؛

إنما يطلبُ الغريمَ الغريمُ

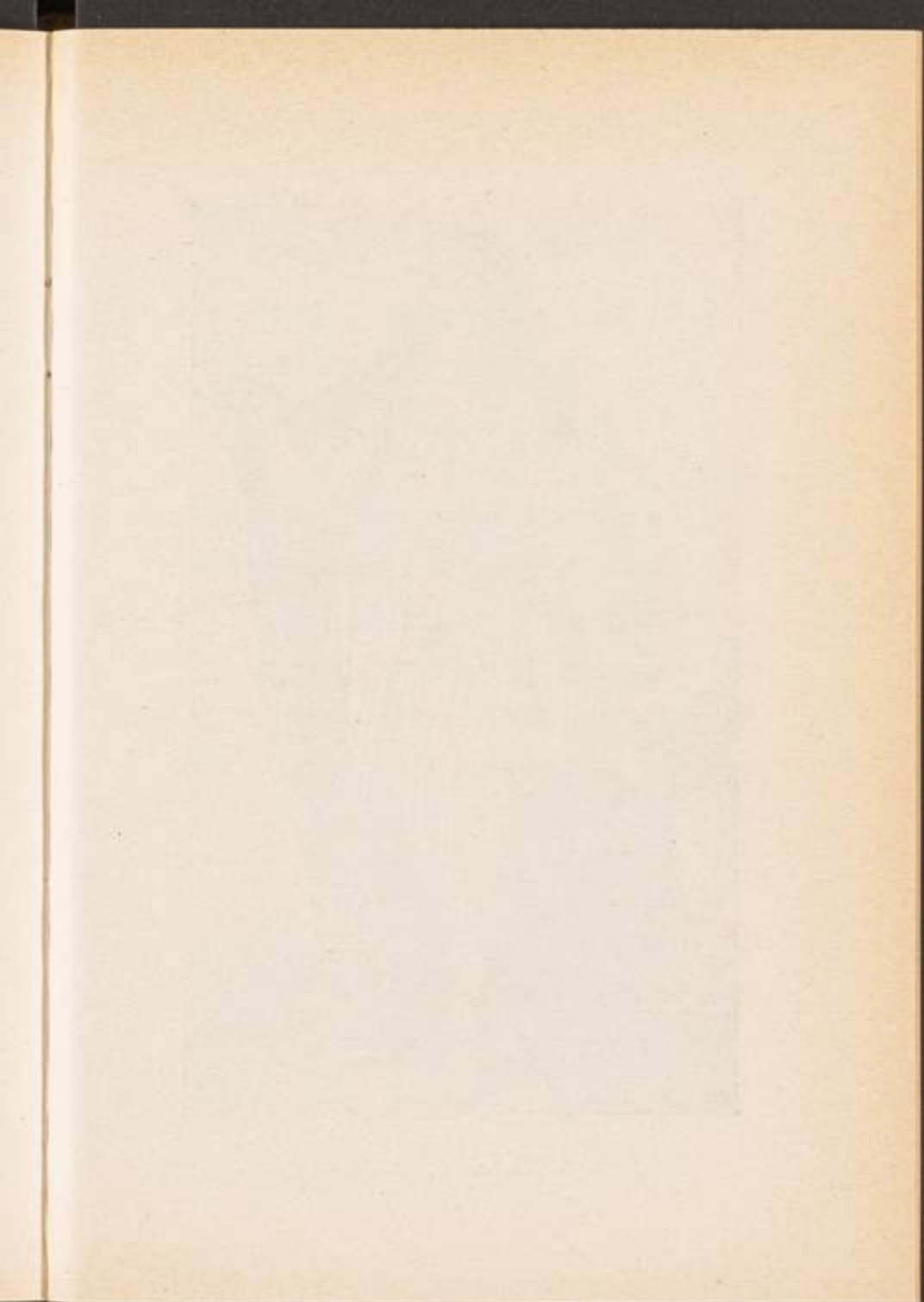
ما لنا والحروبَ ، نحنُ أناسُ ،

ما لنا طاقةُ بشيءٍ يضمُّ

أما الزوجة الرابعة فهي خاصكية بنت الشيخ ظافر ، شقيقة



الأميرة خاصكية زوجة الأمير فخر الدين الثاني



علي الظافري ، الذي كان يتولى صيدا من قبيل الأمير المعني ،
وهي ام اولاده حيدر وبلك وحسن وفاخرة . وكان الأمير
شديد الحب لها ، لجمالها وصابها واخلاص اهلها ، فكان يحملها
معه أينما ذهب ، حتى انها صحبته وأولادها ، فتباناً وفتيات ،
في رحلته الى توسكانا سنة ١٦١٣ .

وثمة زوجة خامسة هي سرية بيضاء ولدت له ابنه منصوراً .
وسهر الأمير على راحة نسائه وطمأنينتهن مشهور : فقد
أقام لكل منهن منزلاً خاصاً بها يزورها فيه . وربما فسّر لنا
هذا كثرة الدور المعنية في دير القمر . وكان حينما يذهب الى
المواقع يوزعهن في قلعتي بانياس والشقيف ، ويخص بخدمتهن
والسهر عليهن من يثق به من رجال ونساء . على انه كان
يحمل معه الى ساح القتال ، في بعض الأحيان ، خاصية ؛
وربما أرسلها الى صيدا تنتظر عودته في دار أخيها . ولما عزم
على السفر الى توسكانا وضع علوة في قلعة الشقيف ، وعهد
بخدمتها الى مملوكه مصلّى آغا ، ومعه بلوك باشي ، اي رئيس
مفرزة ، وخمسون جندياً ؛ وأنزل الباقيات في قلعتي بانياس
ونيجا ، ولكل منهن خدم وجراس .
وقد بادلته نساؤه الحب والاخلاص ، ويقول الأب روجه ،
طيبه الخاص في أواخر أيامه : « انه لما أحبنا في قلعة نيجا ،
مدة سنتين ، التحقت به علوة السقية لموت معه . »

أما مصير هؤلاء الزوجات ، بعد ان خبا نجم الأمير ،
وحمل الى الاسطانة ، فكان القبض عليهن ، وحملهن الى دمشق ؛
فسُجِنَ في قلعتهما ، حتى قُتِلَ الأمير في الاسطانة ، فأمر السلطان
مراد الرابع بقطع رؤوسهن ، فقطعت وعلقت على دائرة سور
المدينة . ويرجح الأب قرأني ان رؤوسهن لم تقطع ، وانما
وُضعت جسومهن في أكياس ، سترأهن ، وشقن شقاً .

وكان لفخر الدين ثلاث بنات : الأولى ست النصر ، وهي
ابنة علوة السيفية ، بدليل اختيار آل سيف لها كنية لهم ،
فلو لم يكن فيها عرق سيفي لما فضلوها ؛ والثانية فاخرة ،
وهي بنت خاصكية الظافري ؛ والثالثة بنت لحاصكية أيضاً ،
حملتها أمها طفلة معها الى توسكانا ، فتوفيت هنالك ؛ فوضعها
ابوها في صندوق اقله ، واستودعه احدى غرف القصر الذي
كان ينزله ، وسدّ بابها بالحجر والكلس ؛ ولما عزم على العودة
الى لبنان ، استخرجه وحمله معه ليدفن ابنته في ثرى وطنه .

تزوجت ست النصر حسن بن يوسف باشا سيفا ، ولما توفيتي
عنها تزوجها اخوه عمر . وهذه الاميرة هي التي ردت بموال
على موال السيفيات ، الذي عرض فيه امامها بابيها .

يُروى ان الاميرات السيفيات كنّ ، في اكثر الاحيان ،
يهزأن ، امام المعنيات المتزوجات بسيفيين ، بدّامة الامير فخر

الدين وقصر قامته ونحافة جسمه ؛ فجيناً يقلن عنه : لو
وقعت البيضة منه الى الارض لا تنكسر . ويقلن حيناً : إن
بإمكان رجالهن ان يضعوه في جيوبهم مع مفاتيحهم . وقد
ساقهن بعضهم له الى ان غنّين امام بنته ست النصر بهذا
الموآل :

جونا الطوال يا نصلة السكين
يا سلسلة مذهبه ، ياسيف علي الدين
جونا القصار لا شوراً ولا تديرو
مثل الضفادع يقعوا في قراني البيرو

ولست ادري ماذا اردن « بسيف علي الدين » ولعلمهن
رمزن الى ذي الفقار سيف الامام علي بن ابي طالب ، ونسبوا
علياً الى الدين اشارة الى جهاده في سبيله .

ولم تكن ست النصر بالتي تسكت عن اهانة ابيها ، فأجابتهن
قائلة :

عبروني بقصرك ، قلت عود التبر
والخصر خصر الغزال والعنق شامخ شبر
قولوا لأهل الدكا قولوا لأهل الحبر
القلم يجمع الدنيا ، وطولو فتر

وموال ست النصر أرقى لغة وأصحّ قاعدة من موال
السيفيات ، والرويّ محفوظ فيه .

ويقال : ان الامير فخر الدين لمّا درى بما دار بين بنته
والسيفيات ، غضب وقال بيتيه المشهورين اللذين يهدّد بهما
السيفيين بخراب ديارهم :

نحننا قصار بعيون العدو كبار ؛

انتو خشب حور، ونحننا للخشب منشار ؛

وحقّ طيبة وزمزم والنبي المختار ،

ما بعمر الدير إلاّ من حجر عكار

وقد برّ بيمينه .

وتزوّجت فاخرة الامير احمد يونس الحرفوش ، ولما توفي
عنها تزوجها اخوه حسين . وهذه الاميرة رافقت والدها ووالدتها
الى توسكانا . وقد عثر الأب قرألي ، بين الوثائق المديشية ، على
رسالة مؤرخة في ٢٧ آذار سنة ١٦١٦ ؛ رجّح ان خاصكية
كتبتها بالايطالية ، من باليرمو ، في اثناء غياب زوجها ، اي
حينما عاد الى لبنان تلك العودة القصيرة في سنة ١٦١٥ ، ووقعت
امضاءها عليها بالاحرف العربية ؛ فعربّها الأب المشار اليه بما يلي :

« سيدتي صاحبة السموّ غراندوقة توسكانا

لا غاية في هذه السطور سوى تقديم آيات الاحترام لسموّك

وتقبيل يديك راجية ان نعدّيني دائماً خادمة لك . وبهذه الصفة
اخبرك ان سيدتي دوقة دسونا شاملتني بنظرها ، وغامرتني بانعامها ؛
واسألك ان تبلّغي سيداتي بناتك احترامي وتقبيلهن عني وعن
اولادي الف قبلة ، سائلة المولى ان يمنحك كل خير وعافية .

عن باليرمو ٢٧ آذار سنة ١٦١٦

خديتك : فاخرة وامها

وامضاء هذه الرسالة يدلّ على ان فاخرة هي التي كتبها .
ومن المرجح ان هذه الأميرة تعلّمت الايطالية ، كما تعلمها
أبوها ، في السنوات الخمس التي بقيتها في توسكانا . كتبت
بالايطالية ، وفضّلت ان توقع بالعربية ، أو بالأحرى بالتركية ،
لأن لفظة خديمت ، مكتوبة بالتاء المبسوطة ، تركية وان تكن
مأخوذة من أصل عربي . وتوقيعها على هذه الصورة يجعل
للمرسلة صفة رسمية ؛ ويمكننا ان نستدلّ بهذه الرسالة أيضاً على
ان خاصكية وبنيتها كانتا تعاشران الغراندوقات ، وتوردان
اليهن ، فتلقيان عندهن كل اكرام واعظام . وأبين برهان على
هذا أن مرضعة قُرّما الثاني ارسلت الى خاصكية ، بعد عودتها
الى لبنان ، صندوقاً من الهدايا ، وارسلت اليها دوقه توسكانا
كثيراً من الشّحف .

وكان امراء الاقطاعات اللبنانية يتهاكرون على الزواج ببنتي

فخر الدين، تودّ دأ لوالدهما وكسباً لرضاه : فلما توفي حسن
سيفاً عن ست النصر كتب الأمير الى يوسف باشا يطلب منه
ان يُعيد اليه ابنته ، فأجابه يوسف باشا قائلاً : « اننا لا نخالف
ما يريد الامير ، ولكن لم يمضِ بعد نصف شهر على موت
ولدنا ، وارجاعُ زوجته اليكم يكسر خاطرها وخاطرنا . ومرادنا
ان تتلطفوا بالتمهّل مقدار شهر . ولعلّ بعد ذلك تجيزون
بتأهيلها بأحد اخوة حسن باشا فهو غاية المراد ، ونحن نكون
في رضاكم ، وان اردتم اخذها تُرسلها بعد تلك المدة . » فأذن
الأمير بعد ذلك بزواجها بعمر أخي زوجها المتوقّسى .

ولما اتم ابن الحرفوش ، زوج فاخرة ، بحميه فخر الدين ،
والتب عليه جيشاً متخالفاً من اثني عشر ألفاً ، غضب عليه
الأمير ، وانتزع منه قصر قب الياس ، الذي كان المعني قد
اشتراه من وارثي الامير منصور الفريخ ، واعطاه فاخرة مهراً ؛
وانتزع منه كذلك فاخرة وارسلها الى أمها في صيدا . ويقول
الحالدي : « انه لما أعاد الأمير فاخرة الى زوجها ، بعد انتهاء
المشكلة ، أخذها وتوجّه الى بعلبك ، وكأنه ملك الدنيا
بجذافيرها ، وحصل له ، من الفرح والسرور ، ما ليس عنه
مزيد ، لأنه كان قد قطع الرجاء منها . »

ومصير هاتين الأميرتين ، بعد مقتل والدهما ، غامض كل

العموض ، فلم يذكر أحداً من المؤرخين ماذا حدث لهما ،
أبقيت كل واحدة منهما عند زوجها أم توفيتنا قبل موت
والدهما ، أم قتلنا مع نسوة ابيهما في دمشق .

على ان الأب اوجين روجه يقول في فصل عربيه الأب
لويس الحازن : « ان امراته الحصوصية — ولعله اراد خاصكية —
وبناته انسجن مع الدرور يوم سقوطه في يد الدولة . » ولم
يقل الى ابن انسجن ، وماذا حصل لهن بعد ذلك .

ولم يذكر الأب قرألي شيئاً عنها ، وانما ذكر احدى
الوثائق المديشية التي تقول : « انه لم ينج من سلالة فخر الدين
إلا الأمير حسين ابن علوة السيفية ، أخفاه بملوك كان رفيقه في
المكتب السلطاني ، حين لجأ اليه خائفاً من أن يُقتل كأبيه
واخوته ، وكنتم أمره ؛ وإلا الأمير ملحم ابن الأمير بونس ،
أخي فخر الدين ، وبناته ، المتزوجتان مقدّمين لمعبين . » ولا
يخفى ان الضمير في بنتيه يعود الى الأمير بونس .

وكل هذا لا يجلو حقيقة ما صار اليه امر ست النصر وفاخرة ،
وسكوت التاريخ عن ذكرهما بعد عودة ولاية المعنيين الى ابن
عمهما ملحم ، ثم الى ولده أحمد ، يدل على انها ، في ذلك
العهد ، لم تكونا في قيد الحياة .

جهان الشهائية

هي الأميرة جهان (دنبا) بنت الأمير علي الشهابي ، صاحب وادي التميم ، ولدت في حاصبيا ونشأت فيها ، ولسنا نعلم شيئاً عن سنة مولدها وعن نشأتها ، شأنها في ذلك شأن سائر الأميرات . وكل ما نعلمه ان الأمير فخر الدين ، لما بلغ ابنه علي الثامنة عشرة من سنه فكسر في ان يزوجه ، فاصطفى الأميرة جهان ابنة صديقه وحليفه الأمير علي الشهابي ، فزفت اليه صبيته في سنة ١٦١٦ .

ولم يكن حظ الامير علي من هذا الزواج الا الحظ الامثل ، فقد كانت الاميرة جهان ، فضلاً عن جمالها الرائع وحبها الريان ، متحلية بأجمل المزايا وأسنى الصفات ، شهدت الوثائق التوسكانية ، التي نقلها الى العربية الأب قرألي ، برأفتها وذكائها وادبها .

ومتما ترويه التقاليد عنها انها كانت مرحة ، ملأت بيت حميها فخر الدين حركة وحياة ؛ فأحبها حموها حباً شديداً ، وكان لها تأثير عليه ، ولا سيما على زوجها علي ، غير ان هذا التأثير لم يكن رائده الا حب الخير .

وهذه الاميرة ، التي لم تكن محبوبة حميها وزوجها
فحسب ، وانما كانت محبوبة الشعب ايضاً ، كما قال عنها فنصل
توسكانا في صيدا ، لم تقدّر لها الحياة الطويلة ، فقد توفيت في
سنة ١٦٣٢ ، وهي في زهرة الصبا . بيد ان موتها هذا
المبكر جنبها رؤبة خبوّ نجم حميها ومقتل زوجها ، فلم تشهد
تلك المأساة المؤلمة التي طوّحت بأسرة فخر الدين .

وكان لموتها وقع مومع في نفس حميها ، فقد أسرع الى
صيда ، يوم وفاتها ، وأقام في منزل ولده ، زوجها ، يندبها
علناً ، لعظم حزنه عليها ؛ ثم بنى لها في بيروت سبيل ماء تخليداً
لذكرها .

ويقول مارييني الايطالي : « ان البعثة التوسكانية هي التي شادت
هذا السبيل للأمير تخليداً لذكرى كتنه التي اختطفتها يد المنون
في ريعان صباها . »

وقد وصف الرحالة موندول هذا السبيل بأنه « أبداع ما
شاهد من نوعه في الامبراطورية العثمانية . »

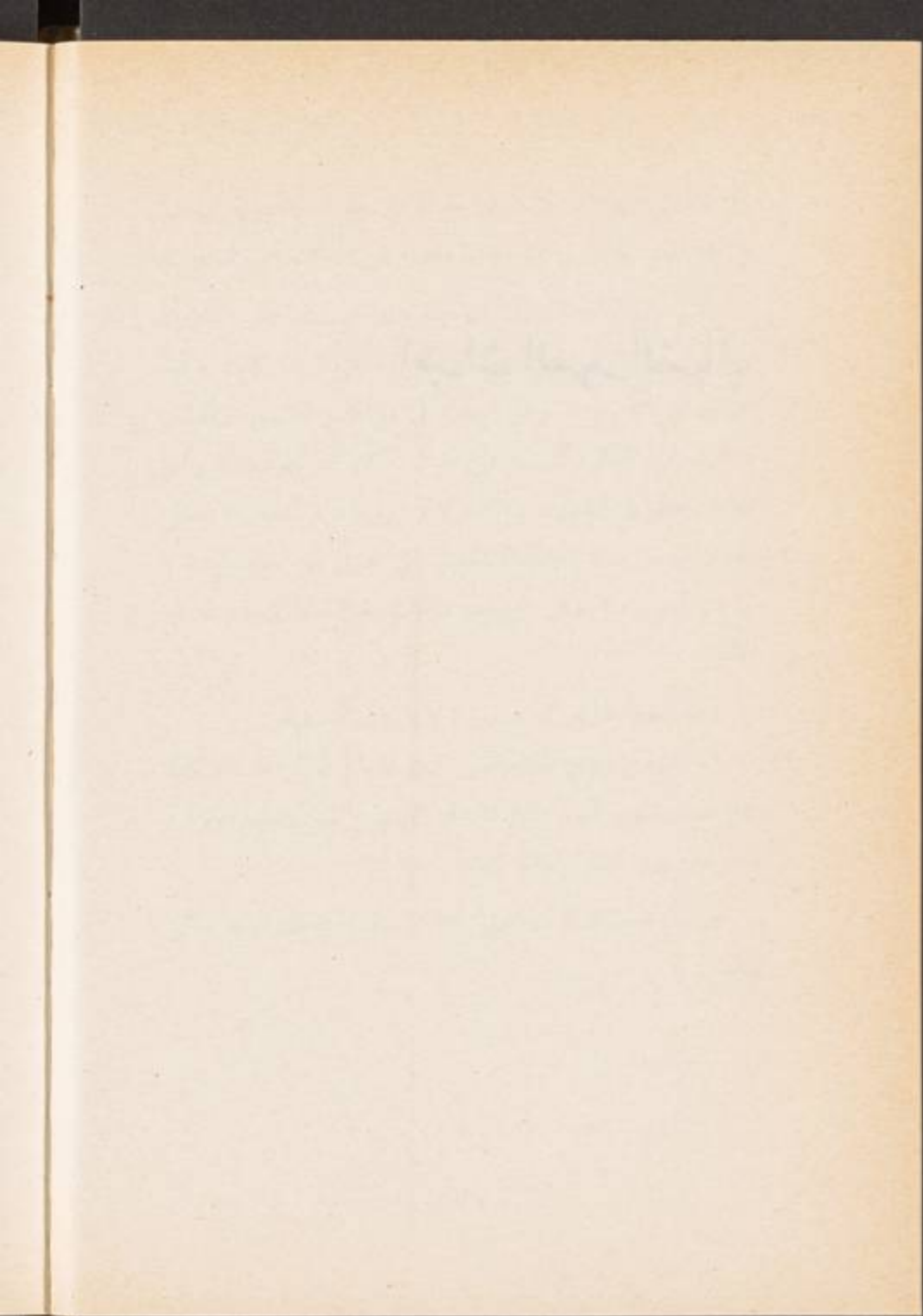
وذكره القائد فرنسيس دافراتسانو ، فنصل توسكانا في صيدا ،
فقال عنه في احدى رسائله : « ان الامير فخر الدين وصل في
الثامن من آذار سنة ١٦٣٢ الى صيدا ، قادماً من بيروت ،
حيث كان بنى سبيلاً تخليداً لذكرى السلطانة ست جهان الدرزية

التي توفيت اخيراً . كانت زوجة الامير علي ، ومحبوبة الشعب
لمزاياها الحميدة، وقيل انها كانت ماهرة بمركات النجوم والسحر .
لقبها بالسلطانة لانها زوجة ولي عهد فخر الدين .
ويستدل من قوله ماهرة بمركات النجوم على انها كانت مثقفة
تعرف علم النجوم ، وهو البحث في مواقع الشمس والقمر
وغيرهما من الكواكب ، من حيث يمكن ان تعرف أحوال
العالم وحظوظ الناس . وأما قوله : انها ماهرة بالسحر ، فلعل
المراد بالسحر هنا اتقان الالاعيب التي تحصل عن خفة اليد ؛
او علم السيمياء ، وهو احداث مثالات خيالية لا وجود لها في
الحس .

وقد اخطأ بقوله انها درزية ، لأنها كانت مسلمة .
اما السبيل الذي شاده فخر الدين تخليداً لذكراها ، فكان
يقع حيث تقوم اليوم بناية الفندق العربي ، شمالي سينما اوبرا ،
وقد هدم يوم انشئت تلك البناية .

والاميرة جهان لم تلد لعليّ ابنا ، فليس في التواريخ ذكر
لذلك .

اميرات العهد الشرايبي



ام دبوس اللمعية

هي الأميرة خنساء بنت الأمير فارس أبي اللمع من بسكنتا ؛
لم يذكرها أحد من المؤرخين اللبنانيين ؛ حتى ان الأمير حيدرآ
نفسه لم يأتِ على ذكرها في تاريخه ، مع انها زوجة أبيه ،
وانما ذكرها في كراسة له عنوانها : «نبذة تاريخية في سلسلة
نسب الأسرة الشهابية ، من الأمير بشير الأول سنة ١١١٠ هـ
١٦٩٨ م ، الى الأمير بشير قاسم الكبير سنة ١٢٢٠ هـ
١٨٠٥ م» .

وهذه الكراسة عثر عليها الأب ابراهيم حرفوش ، المرسل
اللبناني ، بين مخطوطات الكرسي البطريركي الماروني ، ونشرها
سنة ١٩٣٠ في مجلة المنارة ، وعلّق حواشيها . وهي ، وان لم
تكن تحمل اسم كاتبها ، فان فيها اشارات تدلّ على انه الأمير
حيدر . ومن هذه الاشارات قوله في مواضع كثيرة منها :
« كما أتى تصريح ذلك في تاريخنا الأكبر . »

وثمة دليل آخر على انه صاحبها ، هو معرفة كاتبها لأسماء
نساء الشهابيين واللمعيين وبناتهم ، حتى النساء اللواتي لم يُرزقن

أولاداً ، والبنيات اللواتي توفين صغيرات ؛ فإن معرفة مثل هذه الامور الداخلية لا تتأني إلا لمن كان من صلب الاسرة ، والامير حيدر شهابي بأبيه لمعي بأمه ، فهو أولى من سواه بمعرفتها .

على انه ، وان يكن قد ذكرها ، أهمل ذكر تاريخ مولدها ، وهو شيء لا يُلام عليه لان الاهتمام بخصوصيات النساء لم يكن من عقلية أيامه .

اشتهرت الاميرة خنساء بكنيتها ام دبوس ، كتبت بها ، كما قال الامير حيدر في نبذته ، لمزيد فراستها ، وعلوها ، اي وعزة نفسها .

وثمة تقليد قديم بين اللمعيين يقول : انها كتبت ام دبوس ، لان لصواً تسللوا الى قصر أبيها ليلاً ، وكان كل من في القصر نائمًا . فاستيقظت على حركتهم ، وكانت صبيحة لا تسكاد تتجاوز الثانية عشرة ، فلم تُذعر ، وانما تناولت دبوساً من دبابيس أبيها وانقضت عليهم تضربهم به ؛ فذعروا منها وفروا هارين ، وانطلقت تعدو في اثرهم حتى فاتوها ، فعادت الى القصر .

وكان الخدم قد استيقظوا على الضجة ، فخرجوا يتأثرونها فأدركوها ، وهي عائدة ودبوسها في يدها ، فكتبوها ام دبوس ، فانطلقت عليها هذه الكنية .

تزوجت هذه الاميرة الامير احمد ابن الامير حيدر صاحب معركة عيندارا ، التي دارت رحاها بين القيسيين واليمنيين . ذلك انه في سنة ١٧٠٩ ، بعد تولي الامير حيدر حكم الشوف بسنتين ، اشتدت شوكة الامراء آل علم الدين ، رأس العشيرة اليمنية ، فأظهروا نفوسهم ، وظاهروا الامراء الارسلانيون ، أصحاب الغربيين الاعلى والادنى ، ومال اليهم بعض القيسية ؛ وكان من أمرهم هذا ان ازعجوا الامير حيدراً من دير القمر ، وتولى الحكم منهم الامير يوسف علم الدين واخوه الامير منصور .

والامير يوسف هو الذي شنت الحبيشيين ، بعد توليه الحكم ، لعصيانهم اياه وفتكهم بجنوده ، وأحرق غزير في سنة ١٧١١ ؛ يدل على ذلك التاريخ الشعري القائل : « ندمت غزير . »
اما الامير حيدر فانطلق الى انهرمل ، واختبأ هناك في مغاور يقال لها مغاور عزرائيل . وكان المشايخ آل الحازن يرسلون اليه المؤن سرأ ، خشية ان يعلم اليمنيون مخبأه ، فلا يسلم منهم ، ولا يسلم الحازنيون من شرهم .

ولبت مخفياً هناك حتى استعاد الحزب القيسي قوته ونشاطه في سنة ١٧١٠ . فخرج من المغاور ، وتوجه الى المان فنزل على المقدم حسين أبي اللع ، ثم طفق يرأسل زعماء حزبه

منبثاً أيام بعردته ؛ فتسائلوا اليه من كل صوب وناحية ،
وعقدوا اجتماعاً ، في رأس المثنى ، تباحثوا فيه بأمر اليمينية
واعادة الامير حيدر الى الحكم .

وعلم اليمينيون باجتماعهم فاستعدوا للحرب والانقضاض على
القيسية . ولكن القيسيين بيّتوهم ، ليل الجمعة من شهر محرم
سنة ١١٢٣ هـ ١٧١١ م . فاعتزكوا في عيندارا ، وكانت سيوف
المعيين قوام المعركة ، فقتل خمسة من امراء آل علم الدين ،
وانهزم اليمينيون .

ويقول الامير حيدر في تاريخه : « وتزوج كل من كان يمينياً
من لبنان ، وخربت أوطانهم ، وبأد ذكركم من الشوف ، ولم
يبق احد يذكر أنه يميني . »

ثم كافأ الامير حيدر زعماء حزبه بأن وزع عليهم الاقطاعات
واطلق لقب المشايخ على بعض الاسر الدرزية كآل نكد وآل
تلحوق ، واطلق لقب الامارة على المعيين لبطشهم في
تلك المعركة .

وثمة تقليدٌ محفوظ في صليبا ، وهو ان رجلاً نظر الى المقدم
حسين ، وهو يفتك باعدائه ، فقال له : سلمت يدك يا مقدم
حسين ، فغضب ، وضربه بسيفه قائلاً : أقتل ثلاثة امراء
وتقول لي يا مقدم ؟

غير ان الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف عثر ، أثناء ابحاثه ،
على رسالة من الامير احمد المعني ، بعث بها الى الامير فارس
ابي اللمع ، والد ام دبوس ، يلقيه فيها بلقب الامارة ، وذلك
حيث يقول : « الى حضرة الأخ العزيز الامير فارس المكرّم
حفظه الله تعالى . » وقد اثبت الاستاذ المعلوف هذه الرسالة
في كتابه « تاريخ الامير فخر الدين الثاني » مبرهنًا بها على ان
المعنيين ، وهم عرب من قبيلة ابي الفوارس ، كانوا امراء قبل
مركة عيندارا .

وهناك براهين أخرى تدل على ان امارتهم سابقة لمركة
عيندارا ، اثبتها الأب اسطفان البشعلاني في كتابه « تاريخ
بشعله وصليبا » مع كتاب الامير احمد معن المارّ ذكره :
منها تاريخ إنشاء دير مار جرجس في قرية الحرف ، في المتن ،
وهو ظاهر الى اليوم على بلاطة فوق باب الكنيسة ، وهذا
نصّه : « بسم الحي الازلي الدائم الابددي وبه أستعين . انشأ
هذا الدير المبارك ، إن شاء الله ، برسم طاعة الله وعنايته حضرة
الجناب العالي المكرّم الامير عبدالله ابن المرحوم الامير فيدييه
الشهير بابن ابي اللمع ، عفا الله عنه ، بتاريخ ذي الحجة
من شهر اثنين ومئة وألف (١٦٩١ م) . عمل المعلم جرجس
والمعلم سمعان والمعلم جرجس الشامي . »

ولا بد من القول ان بناء هذا الدير يسبق معركة عيندارا
بعشرين سنة ، وان الامير عبدالله ، لما بناه ، لم يكن اللعبيون
قد تنصروا بعد ؛ وهذا دليل على ما كان في تلك العهود من
الاتفاق بين الدروز والمسيحيين ، وعلى انعدام التعصب الديني .
اما لقب المقدّمية الذي حملته اسر لبنانية ، ولا يزال
بعضها يحمله حتى اليوم ، فقد تولّد في لبنان منذ عهد العباسيين :
وذلك ان سوريا كانت في ايامهم فريسة لحروب متواصلة بين
العرب والبيزنطيين ، والسلاجقة والفاطميين ، وظلّت مدهنا
واراضيها ، خلال ثلاثة قرون ، طعمة للسيف والنار ، وعُرْضة
للتنقل من يد غازي الى يد آخر . فرأى موارنة الجبل ، وهم
تُجاه هذه الاحوال ، ان يقوّوا تنظيماتهم العسكرية ليتمكنوا
من الاحتفاظ باستقلالهم الداخلي النسبي ؛ فطفق كبار مُلّاكي
الأراضي ، من أمراء ومشايخ ، يتحلون صفة الرؤساء العسكريين ،
ويتقدمون رجالهم الى الحرب ، فاكتسبوا بذلك لقب المقدّمين ،
اي قواد الجند ورؤسائهم ؛ وتحوّلت الاريسوقراطية الأرضية
الى اريسوقراطية عسكرية قوامها الامراء والمشايخ ، وانتشر
لقب المقدّم بين سائر الطوائف .

هذا كان اصل الاقطاعات في لبنان ؛ اقطاعات لم تكن متماثلة ،
وإنما كان ، لكل منها ، حياة خاصة . فتألّفت ، من جراء

ذلك ، قومية موضعية ، الى جانب القومية الوطنية ، التي كانت تظهر ظهورها القوي نِلقاء العدو المشترك .

فلقب المقدم اذا اكتسبه اللعيون من قيادتهم لرجال إقطاعاتهم . ولعل كثرة تلقيبهم به جعلته اسير على الالسنه من لقب الامارة .

ظل الامير حيدر ، على ظفره باعدائه ، يشعر بأنه في حاجة الى اعوان وأنصار يدينون اخلاصهم له ليتمكن من حكمه ؛ ولاسيا انه لم تكن بعد قد سُئبت له السيطرة الحقيقية على الأمراء والمشايخ . فهذه السيطرة لم تتحقق له الا بعد زمن ، حينما زرع ، بدعائه ، بذور الفتن بينهم ، فتشعبت آراؤهم ، وتنابدوا ، فتغلب عليهم ، وتمكن منهم .

ثم ان بعض مشايخ البلاد كانوا يميلون الى عزله وتولية الامير احمد بن منصور الشهابي ؛ وقد تخلص الامير حيدر من هذا المزاحم بأن دعاه من راشيا الى دير القمر ، بحجة انه يريد تزويجه بنته ، وفيما هو راقد ليلاً ، ارسل اليه ولديه ملحماً واحمد ، فاغتالاه في مضجعه .

كل هذه الاحوال كانت تحمل الامير حيدر على ان يجد سندا يتكئ عليه . ولما كان اللعيون قد اشتد نفوذهم في الجبل ، رأى من أصالة الرأي ان يصاهرهم ، فليس كالمصاهرة

ما بوثقتُ عُرى المودة بين الأسر ، وليس كالمعيين ، في ذلك
الحين ، انصاراً أقوياء يقفهم في وجوه من كانوا لا يزالون
يبيتون له العداوة ؛ فبادلهم الإصهار هو وولداه ملحم واحمد ،
وكان من حظ احمد الاميرة ام دبوس .

عاد الامير حيدر الى دير القمر ، بعد فراره منها ، وعاد
معه الشهابيون ، ولا ريب في انه واسرته كانوا ينزلون في
المباني المعنية ، لانه لم يكن قد تسنى لهم بعد ان بينوا دوراً
جديدة ؛ ونزل الأمير احمد ، كما يقول الامير حيدر ، « في السراي
القديمة التي هي تجاه الشالوط . »

والرأي الأرجح ان الامير حيدر أعنى بالسراي القديمة الدار
المعنية ، ذات البوابة الاثرية ، التي كان يملكها جدي لأمي ،
المرحوم انطون عيد البستاني ، وهي اليوم ملك حفيده جورج
مخائيل عيد البستاني . فهذه الدار كانت تطلّ من ناحيتها الغربية
على السوق التي كان فيها مصب الشالوط في الزمان القديم .
فمصّب هذا الينبوع اذاً كان في سوقٍ أعلى من ساحة
النكدية التي هو فيها اليوم ، وكانت تسمى باسمه ، فلما نُقل
الى هذه الساحة اكتسبت اسمه ، وسمّيت السوق التي كان فيها
سوق الصباغين ، ولم يبق منها الآن الا بعض دكاكين مقلّة .
نزل الامير أحمد وزوجه ام دبوس ، ومعهما صغيراهما مراد

وعمر ، في هذه الدار المعنية القديمة . ولكن هذين الطفلين لم
تقبض لهما الحياة ، فقد ماتا في طفولتهما ؛ فحزنت امهما عليهما
حزناً شديداً ، وساقها حزنها الى التشاؤم بالدار ، توهماً منها
انها شامت عليها فافقدتها ولديها ، فعولت على تركها . ويظهر
انه لم يكن هنالك دار فارغة يمكنها ان تتحول اليها ، فالتست من
سلفها الامير ملحم ، وكان قد تولى الحكم بعد ابيه الامير حيدر ،
أن يبني لها قصرأ جديداً . ولكنه أبى تلبية ملتبسها ، فغضبت
وانطلقت الى بعقلين تؤلب الناس وتدعوهم الى الانتقاض عليه
واذاخته عن الحكم . ويقول الامير حيدر في نبذته : « انها
حسنت وجزمت أنها لا يمكن ان ترجع الا الى دار جديدة . »
وعلى ان الامير ملحمأ كان ، كما نعتوه ، قاسياً لا يعفو من
مذنب الا بعد عقاب ، لم يشأ ان يخاشنها ، او ان ينتقم منها ،
مخافة أن يبعث حزباً معاكساً له ؛ ولاسيما ان ام دوس لمعية ،
ولن يكون للمعيون راضين عن اذاة بنتهم ، ولم يكن هو
يريد ان يفقد اعوانه ، حين كانت العناصر المعادية له في الشوف
وخارج الشوف تتربص منتظرة " سائحة " لتنبعث من رقدتها .
فراى من حسن السياسة ان يقضي سؤلها فشرع لها ، على حد
قول الامير حيدر ، « في بناية الدار المشيدة على التلة بقرب
سراي الحكم التي كانت للأمراء آل معن . »

وتدلّ بلاطة الى جانب البوابة الداخلية من هذه الدار على انه فُرخ من بناء سنة ١١٦٩ هـ اي سنة ١٧٥٥ م . وقد نقش على البلاطة هذه الكلمة : « الله الكافي من توكل عليه كفاه . » ولا تزال هذه الدار قائمة ، وتعرف اليوم بقصر أبي عساف ، نسبة الى أبي عساف جرجس باز الشهير ، اشتراها من الامير احمد زوج ام دبوس . ولما اغتال الامير بشير الثاني في ٥ ايار سنة ١٨٠٧ ابا عساف في دير القمر ، واخاه عبد الاحد في جبيل ، وضع يده على القصر وأمر بإخراج السيدة لولو ارملة أبي عساف واولادها داود واخوته ، منه ؛ ولكن السيدة لولو كانت امرأة مقداماً ، فانطلقت الى الاستانة ، واستصدرت امرأة من السلطان سليم الثالث باعادة القصر الى اولادها .

على ان هذه الدار الجديدة لم تعوض ام دبوس من فقدتهما بسوى بنتين : قلاج وورد . وربما كان إبنائها هو الذي دفع زوجها ، بعد ان اسن وشاخ ، الى ان يتزوج الاميرة سعود بنت الامير مراد اللعي ، لانه كان يريد ان يترك بعده وارثاً ذكراً ، فولدت له سعود الامير حيدراً المؤرخ .

ورواجه هذا كان ، ولا بد ، سبب ما وقع من الشقاق بينه وبين ام دبوس . فهذه الاميرة ، وشأنها شأن كل امرأة سواها في النفوس من الضرائر ، لم تتحمل ان تدخل ضرة

منزلها ، وان تكن ابنة عمها ، فتدمرت ، ولاسيما بعد ان ولدت سعود ولدأ ذكرأ ؛ تدمرت ودمت عقارب الحسد والغيرة في نفسها ، وخيل اليها ان سعود تغلبها بطفلها على النفوذ عند زوجها ، وقد تغلبها ؛ فحملتها عزة نفسها على هجران هذا الزوج ، فذهبت الى عينطورة الذوق تمضي فيها ما بقي لها من الايام ، ونزلت في مدرستها المارونية .

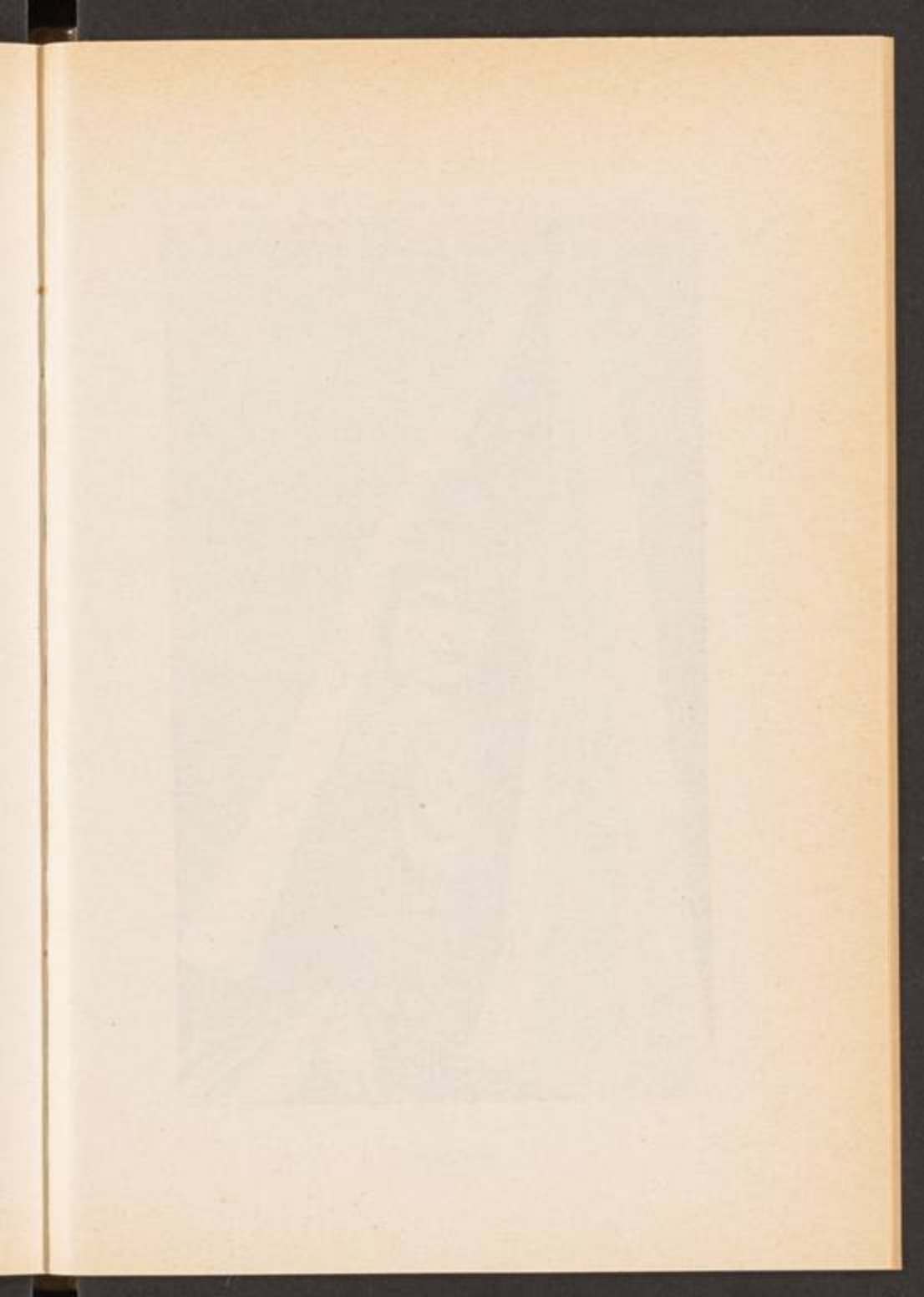
وقد ترك المطران يوسف المريض ، المتوفى سنة ١٨٨٦ ، مخطوطة صغيرة حفظت بين مخطوطات الكرسي البطريركي الماروني ، ذكر فيها ما عرفه بالنقل والتقليد عن ام دبوس فقال ما ملخصه : « كان سبب مجيء ام دبوس الى عينطورة لفسور وقع بينها وبين زوجها الامير أحمد ؛ فنزلت في المدرسة المارونية ، وهي مدرسة بناها الأب بطرس مبارك ، سنة ١٧٤٠ ، في ارض اعطاه اياها الشيخ سليمان الحازن المكتسب باني علي ، فوق مدرسة الآباء العازاريين . وكانت ، يوم نزلت فيها ام دبوس ، خالية . وتقول التقاليد : انها بنت فوق بوابة المدرسة بعض غرف ، أمر البطريرك ، بعد موتها ، بهدمها مخافة ان يدعي وارثوها ملكية المدرسة . »

واتخذت ام دبوس كاتباً لسرها يوسف انطون الرزقي ، فمرض زهاء سنة مرضاً ثقيلاً ، فلقبته بالمريض ، وانطلق هذا اللقب على اسرته من بعده .

وقد توفيت ام دبوس بعد زوجها الامير احمد المتوفى
سنة ١٧٧١ ، ولم يذكر احد سنة وفاتها . ويقول شيوخ تلك
المنطقة الكسروانية : انها دُفنت في غابة الصنوبر في عينطورة .



أميرة شهابية



شمس الشهامية

هي ابنة الأمير محمد الشهابي ، أخي الأمير نجم حاكم حاصبيا ؛ وكان يقال لها شمس المديد ، وهذه اللفظة آتية ، على الأرجح ، من قولهم : مدتّ النهارُ إذا ارتفع ، فيكون معنى اسمها : شمس النهار المرتفع .

اختلف الرواة زمناً في اسمها : فقالوا جبوس ، وقالوا شمس . وسبب ذلك أنها بعد أن ولدت من زوجها الثاني الأمير بشير الكبير ، بكرها الأمير قاسماً تكثرت به ، واخذت توقع امضاءها بأمر قاسم ؛ وكانت معاملاتها كثيرة لعظم ثروتها ، فغلبت كنيته وتنوسى اسمها . ولكن بعد وفاتها عثر على وصية منها موقعة بامضاء شمس عُرف منها حقيقة اسمها واسم والدها .

ولدت هذه الأميرة في حاصبيا ، ولا نعلم سنة مولدها ، ولما شبت تزوجت ابن عمها الأمير بشير بن نجم ، أخا الأمير اسماعيل ، الذي تولى حكم حاصبيا ووادي التيم بعد وفاة أبيه ، فولدت له ولدين : الأمير نسيماً والأميرة خديجة .

وكان على ولاية جبل لبنان، في عهد ولاية الأمير اسماعيل،
 الأمير يوسف ابن الأمير ملحم شهاب، وهو ابن الأميرة امون
 اخت الأميرين اسماعيل وبشير المشار اليهما؛ وكانت العلاقات
 في أول الأمر بين الأمير يوسف وخاليه على أفضل ما تكون
 علاقات: ذلك بان الأمير يوسف لم يكن يطمح الى مزاحمة
 خاله على حكم حاصبيا، لأن خاله كان رجلاً قوياً اوقع هيبتة
 في قلوب أهل بلاده؛ فخافوه؛ حتى لم يفكروا يوماً بالانتقاض
 عليه، «وعظم اسمه» على حد قول الأمير حيدر. ثم لأن
 هذين الأميرين، اسماعيل ويوسف، لم يكونا يطعمان في ولاية
 ابن اختهما، لأنهما كانا راضين بمنطقة حكمهما الحصبة؛ تلك
 المنطقة التي مكنتهما من جمع ثروات عظيمة، وجعلت الأمير
 اسماعيل، على ما قال الأمير حيدر، يقتني من الخدم والحجول
 ما لم يقتنه امير سواه في أيامه. وما من شيء كان يوقع العداوة
 بين الامراء، حتى الاخوة منهم، مثل المزاحمة على كرسي
 الولاية؛ عداوة لم يكن يطفى نارها إلا فتك بعضهم ببعض.
 وقد خدم الأمير اسماعيل ابن اخته الأمير يوسف خدمات
 جلّي، اظهر فيها حبه له وتأيدته لحكمه: فهو الذي حمل اليه،
 الى دير القمر، خبر تنازل عمّه الأمير منصور له عن الحكم؛
 وهو الذي ردّ المساولة عن ان يقضوا على رجاله في موقعة

التبطينية ، التي خسر فيها الأمير يوسف زهاء الف وخمسمائة رجل . ولما انتقض على الأمير يوسف أبناء أعمامه ، بعد ان وضع يده على أملاكهم ليدفع المئـة الف غرش ، المتأخرة عليه ، لحسن باشا قائد العـبارة العثمانية ، أرسل الأمير اسماعيل أخاه الأمير بشيراً ، فأصلح بينهم وبين الأمير يوسف وأعاد الى النفوس الطمأنينة والثقة .

ولبثت العلاقات الطيبة بينهم الى ان دفع الطمع الأمير يوسف الى ان ينتزع من خاله مرج عيون ؛ وكانت وحدها ، من اقطاعات الأمير اسماعيل ، تابعة إيالة صيدا ، في حين ان سائر وادي التيم كان تابعاً إيالة الشام ؛ فذهب الى الجزائر في سنة ١٧٨٣ يتوسل اليه ، كما قال الأمير حيدر ، ليلتم اليه حكم تلك المنطقة . وكان أعظم ما بهمّ الجزائر ان يلقي الشقاق بين الأمراء واحزابهم تلافياً لتعصبهم عليه ، فيحتربون فيما بينهم ويتزاحمون على مرضاته بالمال . وكان يمدد بجنوده يوماً هذا الأمير ويوماً ذاك ، فيتخلص هكذا من اتحاد الامراء عليه ومناوأة البلاد له .

هذه السياسة التي يقولون لها : سياسة فرق تسد ، هي التي جعلت الجزائر يُنعم على الأمير يوسف بمرج عيون ويوقع الشر بين الحال وابن اخته .

وكانت مرج عيون اهراء الأمير اسماعيل ، ومصدر ثروة له ، تغلّ في كل سنة نفقات أهله وأبناء أعمامه ، فشقّ عليه ان تقلت من يده . على انه لم يشأ ان يتعجّل العداوة ، ورأى أن يتدارك الأمر بما هو أجمل بأصرة الرحم ، فشخص الى دير القمير يتوّد الى الأمير يوسف ويتجيب اليه ، ووعدّه بأن يعطيه خمسة وعشرين الف غرش ، اذا ترك مرج عيون له ، فلم يجبه الأمير يوسف الى طلبه . ويقول الأمير حيدر : انه ألحّ عليه بالسؤال حتى انه قبّل قدمه ، ولكنه لبث مصرّاً ، فرجع الأمير اسماعيل الى حاصبيا خائباً .

ولم يكن الأمير اسماعيل لينام عمّن يطمع في بلاده ، فقد فتك بأخيه الاكبر الأمير سلمان لأنه خطر على باله ان يزاحمه على حكم وادي التيم ؛ فانطلق الى عكا ، وطلب من الجزائر ان يولّيه حكم الشوف ، ووعدّه بثلاثمائة ألف غرش ؛ فلم يرفض الجزائر ، ولم يكن من عادته رفض المال ، وانما طلب منه ان يشرك معه في الحكم احد الشهابيين الساكنين في الجبل «ليستانس به الرعايا» . فدعا الأمير اسماعيل اليه ابن اخته سيد احمد ، أنما الأمير يوسف لأمه وأبيه ، ومزاحمه على الحكم ؛ وكان هذا الأمير في الشويفات ، فوافى خاله الى عكا ، فأزعم عليهما الجزائر بحكم جبل الشوف ، وألبسهما خلع الولاية ، وأرسل معها فصيلة من جنده .

أما الأمير يوسف فلم يرَ بدءاً من ان يترك لهما عاصمته
دير القمر ، ويخرج منها . ولكن لم يطل الأمر حتى اتصل بالجزار
وأدعى له مبلغاً من المال ، وتعهّد له بألف ألف غرش يدفعها
إليه في ثلاثة أشهر ، فأعاد الجزار إليه الحكم .

ولما استعاد الأمير يوسف ولايته على الشوف خرج من عكا
وبعث الأمير اسعد ابن الأمير سلمان ، حاكم حاصبيا السابق ،
والأمير محمداً حاكم راشيا ، وبعث معها عسكرياً كبير العدد ،
وعهد اليهما بالقبض على خاله الأمير بشير ، وتولي الحكم في
حاصبيا وراشيا ، فسارا حتى دخلاها ، ففر الأمير بشير منها ،
واستولى عليها الأمير اسعد . ثم مشى الأمير محمد إلى راشيا ،
وكان يتولاها الأمير قاسم ابن الأمير فارس الكبير ، من قبيل
الأمير اسماعيل ، فقبض عليه ، وتولاها بدلاً منه .

وجد الأمير يوسف في السير إلى دير القمر حتى سقط عليها
عند الفجر ، وطوقها برجاله . فتمكن أخوه سيد احمد من
الفرار ، والتحق بخاله الأمير بشير ، وانطلقا معاً إلى حوران .
ولكن الأمير اسماعيل لم يستطع الفرار ، فقبض عليه الأمير
يوسف وزجّه في السجن ، فمكث فيه حتى توفي في مستهل ربيع
الأول سنة ١١٩٩ هـ أي ١٧٨٤ م ؛ قبل انه قتل خنقاً ، فأخفى
الأمير يوسف موته ثلاثة أشهر خشية من الجزار لئلا يتسببه بقتله ،

وكان قد اوصاه بالاحتفاظ به ؛ وابقى الحراس يتناوبون حراسته ، وهم لا يدرون ، ولا يدري احد ، انه مات .

ولم يكن ليروق الامير يوسف ان يبقى خاله بشير حياً يهدده ، وليس بشير بأعز عليه من اخيه لأبيه الامير فندي ، وقد قتله لانه طمخ الى مزاحمته على الحكم ، فأرسل اليه كتاباً يراوده على المصالحة ، واطلق له الامان . وكان الامير بشير قد انحدر من حوران الى دمشق ، فجاءه كتاب الامير يوسف ، وهو فيها ، فخذع بما فيه ، ونهض من دمشق الى دير القصر ، ولم يدخُل على الامير يوسف ، وهو في مجلسه ، حتى نهض اليه واغمد خنجره في صدره ؛ ثم قتل مدبره عبدالله مالك ، بعد ان كان قد أمّنه على نفسه ، وسلب أمواله .

وكان الامير بشير لا يقلُّ ثروة عن اخيه اسماعيل ، فرأى الامير يوسف ان يجرّر تركته ويستولي عليها . فلم يرَ احدًا يثق به الا ابن عمه الامير بشير ابن الامير قاسم عمر الذي صار فيما بعد بشير الثاني . وكان هذا الامير من مُخلصان الاميرين سيد احمد واسماعيل ، فاستجلبه الامير يوسف اليه ، و « طيَّب خاطره » وارسله الى حاصبيا ليطلع على التركة . سار الامير بشير الى حاصبيا ونزل ضيفاً على الاميرة شمس ، زوج القتييل ، فاستهوته بما فيها من جمال واخلاق ، واستهواها

باكتمال رجولته وشجاعته وذكائه ؛ ولم يكن من اعجاب
احدهما بالآخر الى الزواج الا خطوة ما عتّمنا ان خطواها .

وتمت اسطورة عن هذا الزواج لا بأس بايرادها . تقول
هذه الاسطورة : ان الامير بشيراً لما كان في ضيافة الاميرة
شمس ، تناول الطعام واياها معاً ؛ وكانت الايام قارسة البرد ،
فجاءها الخادم بوبريق النحاس مملوءاً بماء ساخن ليغسلا ايديهما ؛
فأخذت الاميرة الابريق لتصب على يدي الامير ، إِمّا تلعظاً
منها ، وإما انه كان في نفسها منه ما كان في نفسه منها ، فأبى
الامير ان يغسل يديه قبلها ؛ ثم تناول الابريق منها وصبّ من
مائه على يديها ، فلذعتها حرارة الماء ، فصاحت : « آخ احرقت
يدي ! » فأجابها على الفور : « مصيبتك هينة عند مصيبي ؛
انت احرقت قلبي ! » وكان هذا التصريح الفجائي كافياً لأن
يتفقا على الزواج ، وسبباً لقولتها تلك الكلمة المأثورة عنها :
« أوّها بشير وآخرها بشير . »

وهذه الاميرة وان لم يكن لها تأثير مباشر في السياسة
اللبنانية ، اثّرت بأن اعاد زواجها الوفاق واواصر الرحم
بين شهابي وادي التميم وشهابي جيل لبنان ، وازال
تلك الضغائن التي سقّت الشهابيين على اثر موت الامير اسماعيل
ومقتل اخيه الامير بشير ؛ واثّرت كذلك بأن سهّلت ثروتها

للأمير بشير الثاني ان ينفق من المال ما مكنته من الوصول الى حكم لبنان : ذاك بأن الأمير بشيراً لم يكن على شيء من الثروة ، فقد توفي والده الأمير قاسم ، في غزير ، في ١٨ نيسان سنة ١٧٦٧ ، وتركه وانجاه حسناً قاصرين : فحسن في زهاء الرابعة من سنه ، وبشير لم يتجاوز الثلاثة اشهر ، ولم يتوكل لهما من المال الا شيئاً زهيداً . ثم لم تلبث امهما الاميرة اسماء بنت الأمير منصور الشهابي من زوجته ، ابنة عمه بدر السماء ، ان تزوجت الأمير سيّد احمد الشهابي في حدث بيروت ، وتركتهما يتيمين صغيرين بين يدي مربيتهما مرجبا بنت نصرالله البشعلاني من صليبا ، فاعتنت بهما كل العناية ، ولاسما ببشير الطفل .

ولما تزعر الأمير حسن لجأ الى الأمير يوسف ، ابن عم ابيه ، في دير القمر ؛ وانتقلت مرجبا بالأمير بشير الى برج البراجنة ، فكان يتروّد على امه أحياناً .

ولما بلغ الثالثة عشرة من سنه ذهب الى بتدين ؛ ويقول الأمير حيدر : « ان الأمير يوسف اسكن الأمير بشيراً في بتدين ، بعد معركة ظهر الأحمر ، قرب راشيا ، التي ثبت فيها هذا الأمير في وجه عسكر الجزائر ، ولم يكن له من العمر الا

١ انظر « تاريخ بعلبك و صليبا » للاب اسطفان البشعلاني .

خمس عشرة سنة ؛ وان الامير يوسف كان يداريه ويخافه اكثر
من جميع أهله . وربما كانت المداراة والمخافة متآبتيين عن
ادراك الأمير يوسف ادراكاً سابقاً لما سوف يكون للأمير
بشير من شأن في حياته .

غير ان الامير بشيراً يخالف في الحديث المنسوب اليه ما
قيل في شأن ذهابه الى بتدين وتزوله فيها ، فقد أخبر عن نفسه
قال : « توفي والدي الامير قاسم عني وعن أخي حسن ،
فاقتسمنا ما تركه ، فكان نصيبي عودتين في بتدين وفرنسين
وجارية حبشية . فأخذت حصتي من الاثاث وحملتته على بغل ،
واركبت الجارية على البغل فوقه ، وبهذا تُعرف قيمة ذلك
الاثاث الذي قدر بغل ان يحمله ويحمل الجارية معه من غزير الى
بتدين . وسافرت متكلاً على الله عازماً على ان اكون في كنف
عمي الامير يوسف ، حاكم جبل لبنان ، وكان يقيم في دير القمر .
ولما وصلت مثلت أمامه وعرضت له انني اتيت لأسكن في
حماه ، فوعدني رعايته وحمايته . ثم ذهبت الى ملكي ، وجعلت
في اول الامر أبني طابونة (بيتاً من اللبن) بمعاونة شريك المساقاة ،
فكان هذا الشريك يناولني التراب ، وسائر الأدوات ، وأنا أبني

١ ذكر حديث الامير بشير عن نفسه المرجوم جرجس صفا نعمة في مقال
له عن سراي بيت الدين ، نشر في العدد الاول من مجلة الكلية سنة ١٩٣١ .

بيديّ ، فيقول لي : يا سيدي ألا ترى ان هذه الطابونة صغيرة ؟
فاجيبه : ان شاء الله نجعلها في المستقبل كبيرة .
وقد تمّ ما توقعه الامير من تكبير تلك الطابونة التي كانت
نواةً لذلك القصر الفخم .

فالاميرة شمس اذا غدّت بثروتها نهضة الامير بشير على
الامير يوسف ، فلولاها لما استطاع ان ينفق على من جتّد من
الشوفيين ، وعلى ما أعطاه اياه الجزائر من عسكر لمحاربة الامير
يوسف : ذلك بانه لم يكن بعدد قد تولى الحكم ليجمع من
الاهالي مالا ، ولم يكن المال الذي زوّده به الامير يوسف
يوم بعثه الى الجزائر ، ليكفي ان يشبع شهمة الجزائر .

ولم تذهب يد الاميرة شمس عند الامير بشير سدى ، وانما
زادت محبته لها ، وكان ايضاً من حظّها ، لتسكين محبتها في
قلبه ، ان ملأت بيته اولاداً ذكوراً .

ومن غريب الاتفاق في حياة هذه الاميرة انها لم تكن تلد
الا في تشرين الثاني : فقد ولدت بكرها في الثامن والعشرين
منه سنة ١٧٨٩ ، وسماه الامير باسم ابيه ، قاسماً ، وولدت
ولدها الثاني خليلاً في الخامس منه سنة ١٧٩٠ ، وولدت الثالث
أميناً في السابع منه سنة ١٧٩٧ .

ولما بلغت الستين مرضت بالفالج وطال مرضها ، فلم يكن

ذلك ليجعل الامير يملكها ، وانما زاد تعلقه بها وحده عليها .
وقد تكلم عليها لامرتين في كتابه « رحلة الى الشرق » ولكنه
خلط في كلامه بعض الخلط قال :

« انها شهابية كانت زوجة امير تركي قتله الامير بشير قبل
زواجه بها بسنتين ؛ وكانت جميلة جداً ، وذات ثروة عظيمة ؛
عمدها الامير ثم تزوجها ؛ ولما بلغت الستين اصببت بالفالج ،
فقعدت لا تستطيع النهوض ، فكان الامير يُعرب لها عن حنان
عظيم واتحاد زوجي تام . »

وتكلم ايضاً عليها القبطان فردينان بيريه في كتابه « سوريا
في ظل الحكم المصري » ولم يتعد الصواب في كلامه ؛ قال :
« ان الامير كان يحبها كل الحب ، وقد عمّرت طويلاً ؛
ولم تكن الامراض الكريهة التي اصابتها ، في شيخوختها ،
لتنقص من تعلقه بها ، فكان يعتني بها بنفسه ، ولما ماتت حزن
عليها حزناً شديداً . »

وتؤيد التقاليد الديرية ما قاله هذان الرحالتان عن حب
الامير لها : فقد ذكروا ان احد اتباع الامير كان ساعراً ذات
ليلة معه ينادمه ، فدار الكلام على امور جرّت النديم الى ان
يقول للامير : إن سعادة الست طال مرضها ، ونسأل الله لها
الشفاء . وسعادتك لا تزال شاباً ممتعاً بأجود صحة . فأدرك

الامير الى ابن يريد ان يصل في كلامه ، وانه يريد ان يشير
عليه بالزواج ، فانتهره انتهارة مرض على اثرها من شدة رعبه ،
وما لبث ان مات .

وفي يوم الثلاثاء من محرم سنة ١٢٤٥ هـ ، ١٨٢٩ م ،
توفيت الاميرة شمس. ويقول الامير حيدر: «انه في حين انتقالها
أمر سعادة الامير بدفنها من دون ان يصير مأتماً (كذا) كما
كانت العادة القديمة، لأن سعادة المشار اليه كان يرغب أن تبطل
هذه العادة من جميع البلاد ، حسب قوانين الكبار في غير
مدن وبلدان . وفي الحال صنعوا المعلمين (كذا) حجرة في
الجنينة التي خارج السرايا ، واطلق الإعلام الى آل شهاب ،
واكابر البلاد ، انه لا احد يحضر ، حيث ان سعادة الامير
يرغب تبطيل هذه العادة. وقد كتب هذا التاريخ على الحجرة :

هذا ضريح قد غدا روض نعيم مستطاب
قد أغربت شمس الضحى فيه، فعنّا النورُ غاب
فغادرتنا كوكب الاحسان في آل شهاب
فغزّها ، قد أرخوا : باقى، توارت في الحجاب

سنة ١٢٤٥ هـ

ولكن الامير لم يرضَ لها بهذه الحجرة التي بنيت على عجل،
فبنى لها في جنينة القصر قبة يتوسطها ضريح انيق من الحجر
الوردي الجميل ، يقوم بين الاشجار الباسقة والازهار الفواحة؛

يؤنس رميم عظامها فيه اغاريد العصافير تتناجى في الاشجار
ليلَ نهارَ ، وثورة مياه الشلال المتدفق زللاً على مقربة منه .
ولا يزال هذا الضريح اليوم كما لو كانت قد فرغت منه يد
الصانع امس ، مائلاً بجلاله ، وطرازه الشرقي ، باقياً على
تقلبات الايام ، وتبدل اشكال الحكم في لبنان ، وتداول
الايدي المختلفة لقصر الامير .

وربما كان الامير ، حينما بناه ، يفكر في ان تكون فيه
رقدته الاخيرة ؛ وقد تحقق ما فكر فيه ، وان يكن ذلك
بعد مئة ونيّف من السنين . وها هو الآن يرقد رفاته الكريم
الى جانب رفات المرأة التي احرق يديها واحرقت قلبه .

حبوس الارسلانية

لم تحز اميرة لبنانية بعد الاميرة نسب التنوخية ، أم فخر الدين الثاني ، ما حازته الاميرة حبوس الارسلانية من جلال المقام ولعان الشهرة : فهذه الاميرة التي كان اللبنانيون ينادونها بالست حبوس ، مثلت في السياسة اللبنانية ، على عهد الامير بشير الكبير ، دوراً سنياً ، كان له شأن عظيم في ادارة دفعة الحكم في لبنان ، فاتخذوها مثلاً يُضرب في العزة والشجاعة والاقدام .

وقد وصفها دائرة المعارف ، للبيستاني ، بأنها « كانت حاذقة ، سديدة الرأي ، ثابتة الجنان ، عالية الهممة ، كريمة اليد ، حسنة السياسة ؛ وكانت الى ذلك تجالس الرجال ، وتقوِّدهم بفصاحة خطابها ، تغيب الملهوفين ، وتعول من يلتجئ اليها ، وتعامله معاملة القريب والصديق ، وتجاهد في اقامة الحقوق له ، وإن لم تكن 'تحقّ' له ؛ هذا اذا كان من غرضها - ولفظة الغرض تعني ، في عرف اللبنانيين القدماء ، الحزب والميل السياسي - واما من يكون من غير غرضها فلم يكن يجد راحة عيش ، ولو كان

صاحب حق ، وما ذلك إلا لما كان لها من النفوذ والسطوة
عند حكام زمانها . »

ولدت هذه الاميرة ، في الشويفات ، سنة ١٧٦٨ ، ووالدها
هو الامير بشير بن محمد الارسلاني ؛ والارسلانيون ، وان يكن
اسمهم مأخوذاً من لفظة ارسلان الفارسية ، ومعناها اسد ،
عربيو التجار ، يعودون بنسبهم الى المنذر بن ماء السماء اللخمي
ملك الحيرة ؛ قدم بهم جدّهم الامير ارسلان الى لبنان سنة
٧٥٨ : وذلك ان الخليفة العباسي ابا جعفر المنصور ، لما بلغه
تمرّد المردة في لبنان وغاراتهم المتوالية على العرب في السواحل ،
ارسل الامير ارسلان بعشيرته لمقاومتهم ومنع تعدياتهم ، وامره
ان يقيم في جبال بيروت ، اي في جبال غربي لبنان المطلّة على
بيروت . فلبى دعوة الخليفة ، وسار بقومه ، فنزلوا اولاً في
الحصن المعروف بحصن ابي الجيش ، في وادي التيم ، ثم دخلوا
لبنان في سنة ٧٥٩ ، وتفرقوا فيه ، وعمروا جبال بيروت .
وكانت بينهم وبين المردة مواقع كثيرة ، اشهرها الموقعة التي
قيل انها اكسبت نهر الموت اسمه لما سقط قربه أو فيه من
قتلى هذه المعركة .

والأمير بشير ، والد الأميرة حبوس ، يتحدّر من سلالة
الأمير جمال الدين أحمد الأرسلائي ، الذي شهد ، في سنة ١٥١٦ ،

موقعة برج دابق ، وهو مكان يبعد عن حلب ست ساعات من شمالها؛ هذه الموقعة التي ذكرنا، فيما تقدم من الكلام، انها دارت بين السلطان سليم العثماني والملك الأشرف قانصو الغوري ، آخر ملوك دولة المماليك البرجيين ، فكانت دائرتها على الملك الأشرف .

تزوجت الست حبوس الأمير عباس بن فخر الدين الارسلاني، فولدت له اربعة ذكور : منصوراً ، وحيدراً ، وأحمد ، وأميناً . ولما توفي عنها ، سنة ١٨٠٩ ، تولت شؤون إقطاعه في الغرب اللبناني لأن أولادها كانوا لا يزالون قاصرين .

وتقول دائرة المعارف ، للبتاني: « ان الامير بشيراً جعلها ، في سنة ١٧٩٣ ، حاكمة على اقطاعه الغرب ، فأدارت الحكم بفضة قلّ نظيرها ، جعلتها موضع اعجاب اللبنانيين وقبيلة أنظارهم . »

وفي سنة ١٧٩٤ شكا رئيس العسكر - وكانوا يسمونه سر عسكر - محمد آغا العبد، وآغاوات العساكر، الامير بشيراً الى الجزائر ، بأنه لم يؤدّ الجزية المفروضة عليه للعساكر ، على ما جمعه من الاموال الكثيرة من أهل البلاد . فأرسل الجزائر ، الى هذا الرئيس والى الآغاوات ، أمراً بالقبض على الامير بشير وأخيه الامير حسن والشيخ بشير جنبلاط ، فقبضوا عليهم في غابة الصنوبر في بيروت ، وقادوهم الى سفينة حملتهم الى عكا؛

فسجنهم الجزار في قلعتها وقيدهم بسلاسل ثقيلة ومنع الناس
مواجهتهم . وقد لبثوا في السجن الى ان صفا خاطر الجزار
عليهم ، على حد قول الامير حيدر ، فأخرجهم من القلعة وألبسهم
الخلع ، وأعطاهم خيولاً بعددها الكاملة ، وردّ عليهم ما كان قد
ضبط لهم من خيل وسلاح يوم أخذوا من غابة الصنوبر ، ثم
أعادهم الى بلادهم في سنة ١٧٩٥ . غير انه لم ينعم على الامير
بشير بجلعة الولاية ، الا بعد ان أخذ ولديه وزوجته رهائن ،
لان الارتهان كان عادة ملازمة له مع كل من يوليه الولاية .
ففي اثناء سجنهم هذا كانت الاميرة حبوس لاتنقطع عن ارسال
الاموال الجزيلة الى الامير بشير ليقدّمها الى الجزار فدية عنه
وعن اخيه الامير حسن والشيخ بشير جنبلاط ؛ وكانت كذلك
تقوم بشؤون عياله ، وتسعى الى استمالة الناس اليه ، وجعلهم
حزباً له ، وابعادهم عن الامير الذي خلفه .

وقد تبسّط لامرتين في كتابه « رحلة الى الشرق » في ذكر
ما صنعتها الست حبوس تجاه الامير بشير حينما كان في سجن
الجزار ، قال : « لما طرح الجزار الامير بشيراً في سجن عكا ،
يوم ذهب اليه ، بعد مقتل الامير يوسف ، أبقاه مدة عشرين
شهرآ ، وضيق عليه بغية أن يسوقه الى دفع جزية عظيمة .
لكن الامير بشيراً لم يكن يملك شيئاً ، ولم يكن بعدد قد تولى

زمناً طويلاً ليجمع ثروة . وكان معه في السجن وزيره الشيخ
بشير ، فأرسل هذا سراً الى الاميرة الدرزية الست حبوس ،
التي كان بينه وبينها علاقات حسنة ، وعهد اليها بأن تقدم للبasha
المبلغ الذي يطلبه ، وتظاهر بأنها تريد ان ترهن حلاها وجواهرها
لاكمال الفدية . فذهبت الى الجزائر ، وكانت امرأة فطنة جريئة
ذات براعة عظيمة ، فالتقت في عكا ، واستأثرت بلطف شخصها
وذكاؤها ، حتى انه خفض مقدار المبلغ ، الذي كان قد طلبه ،
تخفيضاً عظيماً ، وأرجع الامير الى ولايته . »

ولم يكن هذا العمل بالامر الوحيد الذي صنعه الست حبوس
لمساعدة الأمير بشير في تولى الحكم ، بعد انتزاعه منه ، وانما
ها أيادٍ أخريات جليلة في سبيل تأييد حكمه في البلاد واستجلاب
ميل أهلها اليه .

ففي سنة ١٨١٨ عُيِّنَ عبد الله باشا والياً على عكا ، وكان
شأنه شأن غيره ممن تولوا هذه الولاية ، ان يجمع الاموال بأية
طريقة كانت ليملا صندوقه ، ويشبع قرام رجال الدولة ، فيتمكن
من البقاء زمناً طويلاً في ولايته . فطلق يضايق الامير بشيراً ،
ويطلب منه زيادة عمّا هو مضروب من الجزية على أهل البلاد ،
والح عليه بأن يرسل اليه بخمسين الف ربع دينار فندقلي ،

١ لعله منسوب الى البندقية .

فطلب الامير هذا المبلغ من النصارى ؛ فامتنعوا ، واجتمعوا في انطلياس وتعاهدوا على ألا يؤدوا ، في كل عام ، إلا ما رُسم عليهم منذ القديم ، يؤدونه في وقته . واجتمعوا رأيهم على ألا يدعوا لطلب الزيادة ، ولا يدفعوا ديناراً واحداً . ثم تجمهروا في الشوف وكسروان وجبيل ، وكتبوا الى عبد الله باشا يعلمونه بأن الامير ظلمهم دون غيرهم ، والتمسوا منه ان يبقوا على عادتهم القديمة من حيث الجزية ؛ فأجابهم الى طلبهم وأمرهم بالألا يدعوا لطلب الأمير .

ورأى الامير بشير هذا ، فأدرك ان تلبية الباشا لطلب النصارى دليل على تغيره عليه ، ولم يكن لديه من المال ما يرضيه به ، فعزم على التنزل عن الولاية ، وعلى الخروج من البلاد الى حوران ؛ فكتب الى الباشا يقول له : إن عدم رضاه عنه ، وقيام أهل البلاد عليه جعلاه عاجزاً عن تعاطي الاحكام ، ولهذا يتنزل عن ولايته .

وفي العاشر من آذار سنة ١٨٢٠ غادر لبنان منطلقاً الى حوران بأولاده وخاصته ، وصحبه الشيخ بشير جنبلاط وعباله ، وبعض الامراء الارسلانيين ، وفيهم الست حبوس واولادها ؛ وولّى عبد الله باشا بدلاً منه الامير حسن بن علي الشهابي من وادي شحور ، والامير سلمان بن اسعد حمد من الحداث ، بعد ان تعهدا له بزيادة المال المترتب على الجبل .

لبث الامير بشير في حوران ينتظر ان يتنكر الباشا للأميرين
حسن وسليمان فيعزفهما عن الولاية ويعيده اليها : لأن أمر تولي
هذه الولاية كان ألعبوبة في يد والي عكار ، وموضع مساومة ،
فهو يجلع خلعتها على من ترسو عليه الزيادة . وكانت الست
حبوس ، في اثناء ذلك ، ترسل من رجالها من يجوسون خلال
لبنان ، ويراقبون اتجاه ميل أهله : ألا يزال على الامير ام
تحوّل اليه ؛ وربما كانوا يثبون له الدعوة الموافقة ، ويتقصّون
أخبار الاميرين الحاكمين ، وكيف شأنهما وباشا عكار ، ثم
يبعثون بكل ما استطلعوه الى الاميرة الارسلانية ، فنقله الى
البشيرين ليظلا ، على بعدهما ، متصلين بلبنان ، مطلعين على
احواله السياسية وما يطرأ عليها من تبدل وتطور .

ويروي المؤرخون شيئاً عن شجاعة الاميرة وبطشها في
حوران : فقد رووا ان بعض العرب تعدّوا على الدروز هناك
واوقعوا بهم الاذى ، فخرجت الاميرة اليهم برجالها تحاربهم
فاستظهرت عليهم وردّتهم مهزومين .

وما لبث الامير بشير ان استرضى عبد الله باشا ، فتمكن
من العودة الى لبنان ، ونزل بمن معه في جزين . ثم عجز
الاميران ، الحاكمين بدلاً منه ، عن تأدية ما فرضه الباشا عليهما ،
فازاحبها عن الولاية وأعاد اليها الامير بشيراً ، وعادت الست
حبوس الى منصبها في ولاية اقطاعة الغرب .

غير ان هذا الاخلاص، الذي أظهرته الأميرة الارسلانية
للأمير الشهابي ، وتلك الأموال ، التي بذلتها لانقاذه من سجن
الجزار ، وللقيام بنفقات عياله في غيابه ؛ وتلك المساعي التي
سعتها لاعادته من حوران الى ولايته ، لم تمنع وقوع الواقعة
بينهما ، وتحوّل تلك الصداقة الى عداوة شديدة يتمنى معها كل
منهما لو تمكن من القضاء على خصمه .

ففي سنة ١٨٢١ اختلف عبد الله باشا والي عكا ودرويش
باشا والي الشام ، في شأن نابلس ، ووقع القتال بينهما ؛ وكان
من الطبيعي ان ينتصر أمير لبنان لباشا عكا . وكاد العسكر
اللبناني يرجّح كفة هذا الباشا ، لو لم يعلن السلطان محمود الثاني
تمرد عبد الله باشا على الدولة ، وعزله من ولايته ، واحالتها الى
عهدة خصمه درويش باشا . فنسلم هذا ولاية عكا وعزل الامير
بشيراً وعين مكانه الأمير عباس اسعد . فانضم الشيخ بشير الى
هذا الامير، وتعهّد لدرويش باشا بدفع بعض المال الذي طلبه .

ولم يشر احد من المؤرخين الى سبب ترك الشيخ بشير للامير
بشير وانضمامه الى الامير عباس اسعد . ومهما كان الامر فان
الامير بشيراً ما كاد يعود الى دير القمر مكللاً بغار الانتصار في
موقعتي المزة وخرجانة، اللتين كسر فيهما عسكر درويش باشا،
حتى ادرك من تغير الاحوال انه لا يمكنه البقاء في الدير ،

فالتحق بأولاده وحاشيته الى غابة الصنوبر في بيروت ، محاذرة لما بيته له المشايخ اليزبكية ؛ واذا به يتلقى انذاراً من الشيخ بشير يقول له فيه : ان ينزل وأولاده في البحر والا زحفت اليهم العساكر . فلم يروا الامير بدأ من السفر الى مصر ، وكانت هذه الحادثة مثاراً للعداوة بين البشيرين .

ولكن زمان مكوث الامير في مصر لم يكن طويلاً ، لان عزيز مصر محمد علي باشا كان ينزع الى الحاق القطر السوري بالقطر المصري ، ويعلم انه يصعب عليه الوصول الى ما يريد ان لم يكن أمير لبنان حزباً له ؛ وهذا النزوع هو الذي جعله يحتفي بالامير ، ثم يسعى ، لدى الباب العالي ، لاعادته الى ولاية الجبل ، وللعفو عن عبد الله باشا وارجاع ولاية عكا اليه ، تلبية لطلب الامير .

عاد الامير الى لبنان ، وكان كل همه القضاء على الشيخ بشير الذي صار عدوه الاكبر ، خصوصاً انه كان يحشاه لدهائه وكثرة داله ورجاله . وشعر الشيخ بشير بما بيته له الامير ، فخافه لما يعلم من فتكه ، وطفق يأتمر به . وكانت الاميرة جبوس ، غلى قول مؤرخيها ، قد حقدت على الامير لتوسطه في أمر العفو عن عبد الله باشا ، ولم يبينوا سبب بغضا لهذا الباشا ، وربما كان ذلك راجعاً الى عهد نفرتها بأولادها مع الامير بشير الى

حوران ؛ ومهما يكن الأمر ، فانها خالفت الشيخ بشيراً على
الامير ، وكان من جرّاء ذلك ثورة الامراء والمشايخ ؛
تلك الثورة التي عُرفت بجرّاة المختارة ، وانتهت بفوز الامير ،
وأسر الشيخ بشير في الشام ، ثم مقتله في عكا سنة ١٨٢٥ .

وكان الامير بشير ، بعد عودته من مصر في سنة ١٨٢٢ ،
قد سلّم الى الامير احمد ابن الست حبوس إقطاعة الغرب ،
بدلاً من أمه ؛ لانه كان قد ساعده برجاله في موقعة المزّة ،
وأعانه في موقعة لخد ، التي دارت بين جماعة الامير ورجال
تلك الإقطاعة ، واطهر في كلتا الموقعتين شجاعة عظيمة .

غير ان الامير الشهابي وان يكن اراد في الظاهر مكافأة
الامير الارسلاني ، فقد كان يرمي ، في سره ، الى النيل من
عزة الست حبوس لاتفاقها والشيخ بشيراً عليه . وعداوة الست
حبوس لم تكن بالعداوة التي يستهان بها ، لما كان لها من التأثير
في الجبل ؛ فطفق الامير بشير يفكر بأن يزيحها من طريقه
ليستريح منها .

ورأت الست حبوس في سنة ١٨٢٤ ان الشيخ بشيراً قد
غلب على امره ، فأدركت ان الامير لا بد ان يفتك بها ،
فآثرت اللجوء الى بشامون . ويقول طنوس الشدياق في كتابه
« اخبار الاعيان » ان ولدين من اولادها صحباها ، ولكنه لم
يسمهما .

لجأت الاميرة الى بشامون فاتصل خبرها بالامير بشير ،
 فأتبعها احد ابناء اعمامه الامير بشير قاسم حيدر ، الذي صار
 فيما بعد بشير الثالث ، ولقّب بأبي طحين ؛ أتبعها اياه لصدارها
 باموال . ولم يذكر مؤرخوها سبب المصادرة بهذه الاموال ،
 ولماذا صادرها بها ، في حين انه سلّم اقطاعة الغرب الى ولدها ،
 ولم تبق لها علاقة بها ، ولا بالمال الذي يجني منها ؟ اترأها كانت
 اموالاً قديمة عليها لم تدفعها بعد ؟ وكيف كانت الحال ، فالامير
 بشير اراد ان يتحرّش بها ليتوصل الى طريقة يتخلص معها
 منها ؛ وهكذا فانه لم يكذب بشدد عليها بالطلب حتى ماتت قهراً .
 ويروي طنوس الشدياق انه « لما شدد الامير بشير قاسم
 حيدر على الاميرة بطلب المال ، وضيق عليها ، ذهب ولداها
 الى عين تراز يلتسان من الشيخ منصور الدحداح ، مدير
 الامير ، ان يسترضيه بتعيين ما يمكنهما دفعه من المال المطلوب ؛
 وفي غضون ذلك توفيت . ولما بلغ اولادها خبر وفاتها حضروا
 الى بشامون وعملوا لها مأتماً ، ودفنت في قبة الامير نجم . »
 وفي موت الست جبوس قولان آخران ذكرت الاول
 منها دائرة المعارف ، للبستاني ، قالت : « ويقال انها ماتت

١ الامير نجم هو ابن الامير عبدالله الارسلاني ، بن له جده الامير قاسم
 هذه القبة مدفناً ، فحملت اسمه .

بدسيسة من الامير بشير. « ويزيد رواة التقاليد القديمة على هذه
الرواية : ان الاميرة سُخنت خنقاً .

اما القول الآخر فاسطورة لم تدوّن ، وانما تناقلها الناس
خلفاً عن سلف ، وهي تروي : انه بينما كان جنود الامير بشير
محاصراً قصرها في بشامون ، دخلت القصر نوريةً تقصد
الاستجداء ، فاستبدلت الاميرة بثيابها ثياب النورية وخرجت .
ولم تسر مسافة في طريق عين عنوب حتى رآها احد الجنود ،
فلقت نظره ساق بيضاء تظهر من تحت الثياب ، لا يمكن ان
يكون مثلها لنورية تضرب في الآفاق منتعلة قدميها . فصاح :
هي ذي الاميرة ! فالتحق بها الجند ، فسقطت ميتة لشدة تأثرها .
ويروى كذلك انهم اطلقوا عليها الرصاص عند كنيسة عين
عنوب الارثوذكسية ، فقتلوا ، وكان لها من العمر ثمان وخمسون
سنة .

هكذا سُخنت حياة هذه الاميرة اللبنانية العظيمة ؛ هذه
الاميرة التي اتخذها اللبنانيون مثلاً ما زالوا يضربونه في تحدّتهم
عن العزة والشجاعة والنبيل والاقدام .

حسن جهان

توَمَلَّ الامير بشير الكبير بوفاة زوجته الاميرة شمس سنة ١٨٢٩ ، وكان له من العمر اثنان وستون سنة ؛ وعلى شدة حزنه عليها ، ما لبث ان مالت نفسه الى ان يشرك امرأة ثانية فيما أجَّلَّ الله له من السنين . ولم يشأ ان يتزوج اميرة لبنانية خشية ان يتوسل اهلها بما سوف يكون لهم من دالة الإصهار ، الى التدخل في سياسته واعماله ، وهو يأبى الا ان يكون حراً ، مطلق اليد فيها ؛ او ان يتدخلوا في قضية الوراثة ، لانه لم يكن يخاطر في باله ان الامارة الشهابية ستبيد من بعده ، وان اجله سيوافيه على ضفاف البوسفور . وتجاه هذه الخشية رأى ان يأتي بامرأة غريبة لا صلة لها بلبنان واهليه . فأرسل الى الاستانة جوهرية يوسف ، احد اماناته وثقاته ، ليأتيه بجوارٍ ينتقي منهن زوجة له . فانطلق هذا في رسالته ، ثم عاد حاملاً معه ثلاث فتيات شركسيات ، وقيل اربعاً ، اشتراهن بأثمان عالية ؛ فاصطفى الامير منهن حسن جهان ، ونصَّرها وتزوجها ، وجاءها بكاهن ارمني متزلف من العربية فعلمها إياها .

وتقول التقاليد اللبنانية ان حسن جهان كانت اميرة من اميرات الشراكسة؛ ولا ينفي قولهم هذا أن بيعت ببيع الرقيق. فقد تكون سُبيت في غارات القمع التي شنتها الدولة العثمانية على الشراكسة في ثوراتهم المشهورة عليها، وحُملت الى الاستانة فيمن سُبي من بنات بلادها، وبيعت فيها. على ان حظها الميمون دلّ عليها رسول امير لبنان فاشتراها؛ وزواجها بالامير سئى لها ان تخلد في التاريخ، فلو قدّر لها ان اشتراها غيره، او لو بقيت في بلادها، لكانت ذهبت نسياً منسياً ذهاب كثيرات غيرها من اميرات العالم.

كانت سعادة الست، كما كان يدعوها اللبنانيون، رائعة الجمال، يلبق بها اسمها الفارسي: حسن جهان، الذي معناه حسن الدنيا؛ ولا عجب في ان تكون جميلة، فانها شركسية، والشركسيات مشهورات بجمالهن؛ وكانت تجمع الى هذا الجمال الحُلقي جمال النفس وطيب الاخلاق، وهذا ما جعل الامير يحبها، كما احبّ زوجته الاولى، ويحيطها، من الفخفخة والاحترام، بما يليق بزوجة امير لبنان. حتى ليُروى انه كان بين الجواهر التي اهداها اليها ياقوتة وضعتها في طنطورها - والطنطور طاسة مستطيلة محدّدة توضع على الرأس - ثمّتها باعة الجواهر بأكثر من مئة ألف وخمسين الف غرش؛ وعرش

ذاك العهد كان ، على حدّ قول العامة ، له « ذقن كبيرة » .
وحبّ الأمير للست ، واخلاصها الصادق له جعلنا نفوذها
عظيماً في بلاطه . غير انها لم تكن تستخدم ذلك النفوذ إلاّ بما
فيه النفع والخير للبنانيين ؛ وكثيراً ما كانوا يلجأون اليها إما
لتخفيف الضرائب عنهم ، أو لغير ذلك من الامور التي يتعلق
قضاؤها بالأمير ، فكانت تلبّيهم وتحقق رغباتهم .

وقد اندمجت حسن جهان باللبنانيين واتصلت بهم أكثر من
سليفتها الاميرة شمس . ولعلّ ذلك متأتّ من ان كرسي
الامير لم تكن قوائمه قد ثبتت في الحكم كل الثبات في عهد
زوجته الاولى ؛ أو من مرض الاميرة شمس ذاك المرض الطويل
الذي ألزما الفراش سنوات .

ولدت حسن جهان للأمير بنتين سمّى كبراهما سعدى
تيمناً بكنيته ابي سعدى التي كان اللبنانيون يكتونونه بها . وقد
وردت في بيت شعر مدح به نقولا الترك الامير بعد انتصاره
في معركة دمشق ، التي دارت بين سليمان باشا والي عكا ، والكنج
يوسف باشا والي الشام ، في سنة ١٨١٠ ، قال :

وتمّ له نصر ، من الله ، مُقبِلٌ

بوجه ابي سعدى ، وفيه تبشّروا

وهذه الكنية مأخوذة من السعد . وكان اللبنانيون يلفظون

اسم سعدى ، بنت الامير ، بفتح السين ، مع انه مضمومها لأنه صيغة تفضيل للمؤنث ؛ وسمى الثانية سعوداً ، وكانوا يفتحون السين في لفظ هذا الاسم ويشددون العين ، فيقولون : سَعُود . وقد وافقت الست وبناتها الامير في منفاه ، وتنقلن معه في البلدان التي تنقل فيها ، الى ان استقرّ واستقرّين معه ، من الاستانة ، في محلة قاضي كوي .

وزوج الامير بنيه ، وهو في الاستانة : استقدم اليه الامير سليمان ابن الامير عبد الله ابن اخيه حسن ، فزوجه سعدى ؛ والامير خليلاً ابن الامير بشير بن احمد اللعي ، فزوجه سعود لانه رآه كفوّاً لها نسباً وغنى ، وكان ابوه يومئذ قائم مقام النصارى ، وذلك في عهد القائميتين .

ولبثت الست وبناتها وصراها الى جانب الامير في الاستانة الى ان توفي في الساعة التاسعة والنصف من نهار الاثنين في ٣٠ كانون الاول سنة ١٨٥٠ . فبعثت برسالة الى البطريرك يوسف الحازن تنعى أميرها اليه ، وتخبّره فيها بأن الدولة العلية أذنت بأن يُدفن ، وفق ارادته ، في كنيسة البطريركية الأرمنية الكاثوليكية ، في غلطة ، فدُفن « بكل احترام ووقار » . وقد اثنت على المونسنيور سلفياني ، والمطران حسون و افراد طائفتها لما اظهروه من « لطف ومعروف » ؛ وبعثت مع هذه الرسالة

بجواله مبلغها اربعون الف غرش ، على خليل وملحم الطرابلسي
من دير القمر، اللذين نعتتهما « بأحبائنا ووكلائنا » ، وأوضحت
كيف يجب ان يوزع هذا المبلغ عن نفس زوجها الامير .

مكثت حسن جهان في الاسنانة ، بعد موت الامير ، حتى
منتصف سنة ١٨٥١ ، ثم استأذنت الباب العالي بالعودة الى
لبنان ، على ان تحتفظ بحق ما رتب لها من مال ، فأذِن لها .
وقد أشار الى هذا الاذن الحوري اسطفان حيدش ، وكان
مرافقاً للامير في منفاه ؛ فقال في رسالة بعث بها الى البطريرك
الحازني، في التاسع من آب سنة ١٨٥١ ، ما نصّه : « انه من
خصوص الرخصة لاحضار سعادتها للجبل ، مع حضرة أبنائها ،
ما صار أدنى مانع من طرف الدولة العلية ؛ ومن حليمها ظاهر
كل لطف . والأمل بالله ، بأواخر القادم (اي ايلول)
تكون بالسفر . »

ويُستدلّ من رسالة أخرى أرسلها الحوري الحيشي ايضاً
الى البطريرك نفسه : ان مطران اللاتين احتج للمجمع
المقدّس على دفن الامير في كنيسة الارمن . « ولكن نيافته
- ولعله اراد بنيافته الكردينال رئيس المجمع - لم يابه
لاحتجاجه . »

ويعزو الحيشي سبب هذا الاحتجاج الى الشيخ داود باز

من دير القمر ، فقد كان حزبياً لحفدة الامير المناوئين لسعادة
الست لاستشارها بتوكة الامير ؛ فهو الذي دفع مطران اللاتين
الى الاحتجاج . ويعتب الحبيشي على الشيخ داود في رسالته
هذه ، فيقول ، وكأنه يتكلم بلسان الست : « ان المعاون
الكبير لجناب المذكورين (اي حفدة الامير) هو الشيخ داود
باز ، الذي افضالنا غامرة المذكور ، وأولاد عمه الذين بالخدمة .
وهذه مجازاتهم ، ولكن ما لي اقول الا : الله يسامح الجميع . »
عادت سعادة الست الى لبنان ولكنها لم تحمّل معها رفات
الامير ، لأن الدولة العلية لم تسمح بنقله . فبقي في الاستانة الى
ان استقلّ لبنان ، ففاوضت حكومته حكومة تركيا بشأن
نقل ذاك الرفات الكريم ، فسمحت بذلك . وارسلت حكومة
لبنان بعثة الى الاستانة ، فجاءت به في ايلول سنة ١٨٤٧ ، وحمل
في احتفال مهيب الى بتدين ، وهناك دفن في الضريح الذي
كان قد شاده للاميرة شمس زوجته الاولى .

وكان الامير قد ملك حسن جهان ، بصك كتبه في
الاستانة سنة ١٨٤٥ ، قصر بيت الدين والمقصفين ، والقناة
التي مجرت بها المياه من عين زحلنا ، وقرية الجية ، التي كان قد
اشتراها واراخي بتدين بأموال زوجته الاولى . فكانت تنتقل
بين الجية وبتدين ؛ وقد اشتهرت بتقاها وكثرة مبرّاتها

وإحسانها الى المعوزين ؛ فشيّدت في سنة ١٨٥٥ ، في الجبّة ،
معبداً خاصاً بها ، ووقفت مقصفي بيت الدين على أبرشية صيدا
ودير القمر المارونية ، وقناة المياه على فقراء هذه الأبرشية ،
وجعلت نظارة الوقف لمطرانها ، وكان ، في ذلك العهد ، المطران
بطرس البستاني ؛ ولم تبقى لنفسها الا القصر وقرية الجبّة . ثم
قسمت الجبّة ، فيما بعد ، بين بنتيها .

ولما وُضع نظام لبنان الصغير ، في التاسع من حزيران سنة
١٨٦١ ، عُيّن داود باشا الأرمنيّ اولَ متصرف له ، فجاء في
الثاني عشر من تموز ، من السنة نفسها ، ونزل في دار الحكومة
في دير القمر . ولم يطل عليه الامر حتى استأجر من الست قصر
بتدين بصك مؤرخ في الثالث عشر من آب سنة ١٨٦١ ، جاء
فيه : « ان سعادة الست حسن جهان أجّرت كامل السراي
المعروفة بسراي بيت الدين ، من داود باشا متصرف لبنان ،
بكل ما فيها من الجنائن والحمام لسنة كاملة بأجرة قدرها
ثلاثون ألف غرش . » وعلى هذا الصك توقيع داود باشا ، وتوقيع
الحوري اسطفان حبيش بالوكالة عن الست ، وتحتها تصديق
حسن جهان بخطمها وتوقيعها .

وكان داود باشا يعظّمها ويكرّمها ، فاذا جاءت الى زيارته
أمر بأن يصطف لها الجند اللبناني ويستقبلها بالابواق ؛ ولعل

هذا التعظيم ، الذي كان داود باشا يبديه نحوها ، هو الذي جعلها تتساهل في بيع القصر من الحكومة اللبنانية ؛ فباعته منها بمبلغ زهيد بالنسبة اليه ، قيل هو خمسون ألف غرش ؟ بعد ان كانت قد اجرتة منها ، لسنة ، بثلاثين ألف غرش .

ويُستنتج مما كتبه عنها الدكتور شاكر الحوري في كتابه « مجمع المسرات » انها كانت كريمة حتى التبذير ، وقد انفقت اموالاً عظيمة ، فأعسرت في آخر ايامها . وينسب الدكتور ذلك الى انها كانت ترمي من وراء سخائها الى اكتساب شهرة تمكنها من ان تحكم لبنان مكان زوجها .

ويروي ايضاً : « انها بعد ان انفقت ما انفقته ، زيتن لها المقربون منها ان تسافر الى مصر وتقابل الحديوي اسماعيل بن ابرهيم باشا صديق زوجها ، وتسأله ان يساعدها في شأن تولي الحكم في لبنان ؛ فسافرت في ايار سنة ١٨٧٤ ، تصحبها حاشية مؤلفة من عشرة انفس بينهم صهرها الامير سليم وعبدالله البستاني ، شقيق المطران بطرس البستاني ، فنزلت في البطريركية المارونية . »

ويظهر ان متولي النيابة البطريركية الحوري جبرائيل صغير لم يستطع ان يتحمل نفقاتها ونفقات من معها ، فتذمر ؛

فسمى الدكتور الحوري ، وكان يومئذ في مصر ، ويوسف شكور ، ولعله من أسرة شكور عين زحلتا ، بواسطة رياض باشا ، لدى الحديوي لينزلها على حسابه في المضافخانة ، اي دار الضيافة ، فأصدر امره بذلك . فمكثت خمسة اشهر تنتظر ان يقابلها وهو بماطلها .

ويعمل الدكتور الحوري هذه المماطلة «بطبق حنك الحدّام»؛ ذلك انه كان في حاشيتها واحد يتردد مع صديق له ، يدعى الشيخ ابازا ، الى بيت منصور باشا يكن ، صهر الحديوي ؛ فقال مرة امام الباشا: ان الست جاءت مصر تحمل أسناداً مالية للأمير بشير علي ابراهيم باشا، وهي تريد ان تقدمها لابنه الحديوي اسماعيل ، ليتصرف بها على ما يشاء . فنقل الباشا هذا الحديث الى الحديوي ، فبعث هذا يسألها ما هي غايتها من مجيئها الى مصر ؟ فأجابته بأنها لا تقصد الا التشرف بمقابلته . قرأى في جوابها هذا تأكيداً لما نقل اليه عن الأسناد المالية ، فطفق يطاؤها ويؤجل مقابلتها .

ولم يطل مقامها حتى ملت التأجيل ، وضجرت من الانتظار. ثم مرضت فبعثت الى الحديوي تطلب منه ان يأذن لها بالرجوع الى لبنان ، فأذن لها وأعطاهم خمسمائة ليرة مصرية ونفقات سفرها وسفر حاشيتها .

ابجرت حسن جهان من بور سعيد على باخرة مساوية انزلتها
في حيفا ، لأنها لم تشأ ان تنزل في بيروت . فحملت ، من
هنالك الى الجية ، في محمل ، على ظهر بغلة ، عادلتها فيه
خادمتها . وكان المرض الذي حملته معها من مصر مرضها الأخير ،
توفيت به في برج البراجنة سنة ١٨٧٥ . وشيد لها ضريح قرب
كنيسة البرج القديمة نقشت على بلاطه هذه الأبيات لشاعر
مجهول :

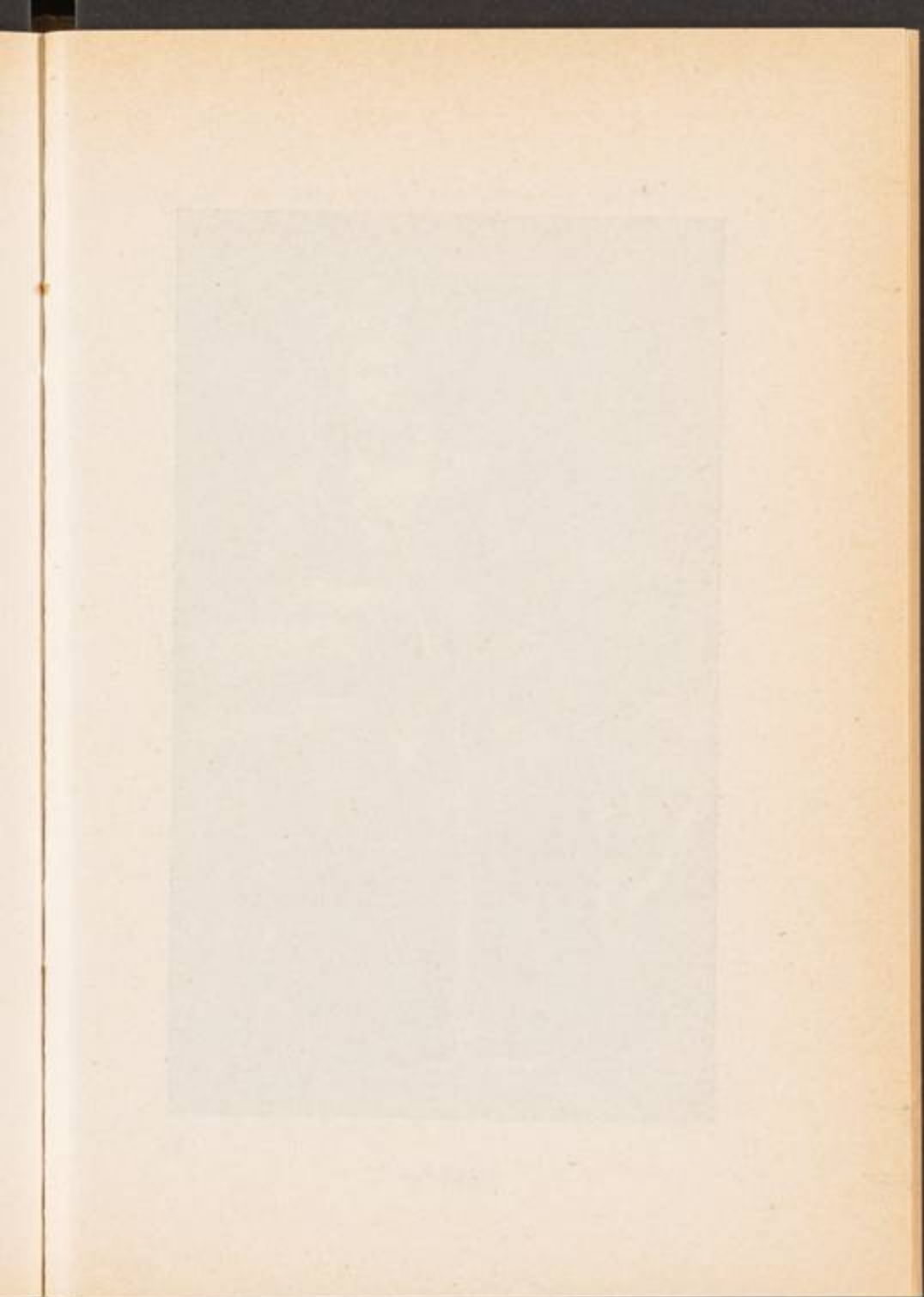
ألا اعموا الدمع ! 'حسن' جهان سارت
عن الدنيا ، وجدّت بالمسير
لها مجد الامارة من شهاب ،
قرينة' سيد العلياء الشير
ومذ أمت جنان الحُلد ، تبغي
لقاء قرينها المولى البشير
فحازت في النعيم ، أرخت ، يسراً
وقد باتت على أعلى سرير

(١٨٧٥)

والبلاطة التي نقشت عليها هذه الأبيات رفعت عن الضريح
بعد ان هدمت الكنيسة القديمة ، وبنيت الكنيسة الجديدة ،
ووضعت في بعض زوايا هذه الكنيسة مهلمة ، على قببتها
التاريخية .



اميرة لبنانية



سعدى وسعود

هما كريمتا الامير بشير الكبير؛ وقد تقدم ذكرهما في اثناء الكلام على امها الاميرة حسن جهان .

تزوجت الاميرة سعدى الامير سليم عبد الله حسن الشهابي، قبل زواج اختها الاميرة سعود بالامير خليل بشير احمد اللامي . فان هذه الاميرة لم تتزوج الا قبل وفاة والدها بخمسة وعشرين يوماً . وقد جهزها والدها جهازاً فاخراً ثميناً لا تزال لائحة البيان به محفوظة ؛ فكان الأمير ، وقد أخرجها الى غير اسرتها ، اراد ان يعززها في عين الحتن وعيون أهله .

ولكن الاميرة سعود لم تنهتاً بجهازها، لانها بعد عودتها وأما واختها من الاستانة ، لبثت شبه محبوسة في منزل زوجها في قرية المجذوب تجاه يرمانا . ذلك لان زوجها كان شديد الغيرة عليها لا يدعها تخرج من باب دارها .

وقد توفيت قبل امها واختها ، بدليل احد الشروط التي اشترطتها امها في وقفها قناة مياه القاع والصفاء ؛ فقد كان هذا الشرط يقضي « بتقدمة قداسين يومياً ، الى خمسة عشر قداساً ،

عن نفس الأمير ونفس بنته سعود . وصك شروط الوقف
مؤرخ في التاسع عشر من نيسان سنة ١٨٦٥ ، ومختوم بخاتم
المطران بطرس البستاني . فوفاتها اذاً سبقت هذا التاريخ .

ومن المرجح انها توفيت في سنة ١٨٦٠ ، في بيروت ،
ودفنت في قبة خاصة في مقبرة المدور .

وأخبرني الأمير بشير ابو اللمع ، وهو ابن سلقها ، انه لما
ألغيت مقبرة المدور ، نقل للمعبون بقايا الاميرة سعود ، فيما
نقلوه من بقايا انسابهم ، الى مدفن آل أبي اللمع الخاص في
رأس النبع في بيروت .

ويروى ان هذه الاميرة تركت ، بعد موتها ، جهازها مكدهسا
في الضاديق لأنها لم يتسن لها ان تلبس منه شيئاً ؛ فورثته
بنتها الأميرتان ورد زوجة الامير قبلان ابي اللمع ، ولما
زوجة الامير امين ابي اللمع اولاً ، ثم زوجة الامير قبلان بعد
وفاة زوجها واختها .

أما الاميرة سعدى فقد نزلت اولاً في الجية ، ثم انتقلت
الى حدث بيروت تعيش عيشة هائلة الى ان توفاه الله في سنة
١٨٨٤ ، فدفنت في دير مار انطونيوس في بعبدا .

ملا بس الاميرات،

مهما ماتهن، مسرهن

Handwritten text, possibly a title or heading, in Arabic script.

Handwritten text, possibly a title or heading, in Arabic script.

Main body of handwritten text in Arabic script, consisting of several lines of cursive writing.

ملابس اميرات لبنان

تقلبت الازياء النسائية ، في لبنان ، على اطوار شتى ، شأنها في كل اقطار العالم ، حتى وصلت الى الطراز الحديث الذي نراه في عهدنا هذا .

وما ادرانا ما سوف تكون عليه في العهود المستقبلية ، قليست هي الا صفحة تاريخية عن الجيل الذي يتداولها ، ومرآة تنعكس عليها تقاليد وعاداته واذواقه .

وربما كانت عيوننا اليوم تلتذ بالنظر الى ما يمثل ازياء جداتنا ؛ ولكنها لا ترضى عنه كل الرضا لما فيه من مخالفة لأذواقنا ، في حين ان اسلافنا كانوا يرونه جميلاً فاتناً ، لأن عيونهم ألفتهم ، واذواقهم انست به .

ويقول لنا مؤرخو لبنان ان ملابس جداتنا القديمات كانت على زيين : احدهما زيّ المارونيات الذي حملته معهن من شمالي سوريا ، وهو زيّ جميع نساء الشعوب القديمة تقريباً : ثوب مسترسل الى الارض يغطّي الجسم كله ، نسيجه من القطن الابيض ، بسيط الشكل ، وربما كان ازرق ، او بنفسجياً ؛

ويرفع يغطي شعر الرأس من أمام ووراء ؛ وأساور عظيمة
أو نحاسية تحولت بعدئذ الى فضية ، أو ذهبية ، بحسب منزلة
التي تلبسها ومستوى ثرائها ؛ وخلاخيل في الارجل ؛ وعصابة
للجبهة تصف عليها نقود نحاسية ، وربما كانت عند الغنيات
فضية ، أو ذهبية ؛ ومداس من جلد في الارجل .

وقد وصف الاب دنديني ، مؤلف الحبر الاعظم في سنة
١٥٩٦ ، زبي المارونيات قال : « تتدثر نساء الموارنة بأكسية
ساذجة تسمى الارض ذبولها ، وتستر ابدانهن كلها . وهي
في الغالب من النسيج القطني الابيض ، او البنفسجي ، او
الازرق . ويسترن رؤوسهن بمناديل تغطي شعورهن . واذا
صادفن غربياً تجتنبته ، او سترن وجوههن بتلك المناديل .
ويتشبه بعضهن بالنساء المحمديات ، فيلبسن الاساور في معاصهن
والخلاخيل في ارجلهن ، ويعصبن على جباههن عصابات مزينة
بالحجارة الكريمة ؛ وبعضهن يضعن على رؤوسهن عرقبات رصفت
عليها نقود وقطع ذهبية محكمة الصنع ، أو يلبسن قلنسوة
طويلة دقيقة تدعى طنطوراً ؛ ولا يُعنين بتجعيد شعورهن ،
ولا بتخصيبها ، ولا باتخاذ شعور مستعارة . »

اما الزبي الثاني فزي اللواتي قدمن ورجلهن من جنوبي
لبنان ، وهو عربي مؤلف من قميص طويل ، يسدل من العنق

الى القدمين ، وكوفية وعقال ؛ وقد تلفّ لابسته كوفيتها
على وجهها فلا تظهر عينها .

وهذا الزي ، على ما ارجّح ، زي المسلمات ، وقد تطور ولا
ريب ، فصار على الشكل الذي وصفه الاب دنديني في أواخر
القرن السادس عشر ، وذاك حيث يقول : « يتألف زي المسلمات
من قميص وجلابية ومُضْرَبِيَّة وسراويل وخفين ؛ ويسترن
رؤوسهنّ بعرقيات ، أو طاقيات من صوف ، أو جوخ ، أو
حرير أحمر أو أزرق ، مطرزة بالذهب أو الفضة ؛ ويرصعها
بعضهنّ بالنقود الذهبية ، ويقال لها : حُفَّة ، أو شكلة ؛ ويجدلن
شعورهن ضفائر يرسلنها على اكتافهن ، أو يضمنها بعصابة
خصائل خصائل ، ولا يجعدنها فوق جباهن . وجوههن طبيعية
فلا تصنع ولا طلاء . وهن يتختمن بالحواتم ويتقرطن بالحلل
ويلبسن في معاصهنّ الأساور ، كل ذلك إما من ذهب ، أو
من معدن غيره ، بحسب غنى المرأة ومنزلتها في بيتها . واساورهن
عريضة في صفحة واحدة . . . ولا يقصرنها على المعاصم فتحسدها
الارجل ، وانما تنال هذه نصيبها من الخلائيل . »

« وهذه الملابس والحلى كانت تزين بها المرأة في منزلها ؛
وأما اذا خرجت الى الأزقة والشوارع فكانت تأتزر بازار
من كتانٍ أبيض ، أو من قطن أو حرير اسود ، يحجبها حتى

يديها عن الانظار ؛ وتقتنع وجهاً بقطعة من قماش أبيض أو أسود لا يمكن العين ان تستشفه ؛ ويتنقّب بعضهن بنسيج اسود شفاف ، فينظرن غيرهن ولا ينظرهن .

«وتقتدي بهن» في زيهن نساء طوائف اخرى كاليهوديات والروميات والسربانيات والتركييات . ويلبسن في اقدمهن نوعاً آخر من الأحذية ، يسمّى الجزمة ، يقبها الوحل والماء في فصل الشتاء .»

غير ان هذين الزيين لم يلبتا ان انتها الى زي لبسته النساء اللبنانيات جميعهن من اميرات وشيخات ومثريات وفقيرات ؛ ولم يكن يختلف ثوب الواحدة منهن عن ثوب الاخرى بسوى الفخفة والاناقة ومظاهر المنزلة الاجتماعية والثراء . وهو يتألف من قباء «قنباز» طويل مشقوق من أمام ، أو من أعلى المعطفين حتى المنطقة . وله أزرار نحاسية ، أو فضية . وقد بقي لهذا القنباز أثر عند بعض النساء المسنات في الجبل الى عهد غير بعيد .

ويلبسن تحته قميصاً من الحرير ، وقد يكون مطرزاً ؛ ويوضع على الرأس شبكة ، وهي كيس حريري تلف به الذوائب ، شبيه بالشبكة التي تلبسها السيدات والاونس في هذه الايام ؛ وفوقها طنطور ، وهو حلية اسطوانية الشكل ، اشبه بالقرن ، محدّدة الاعلى ، يكون ارتفاعها عند الاميرات

ذراعاً ، وعند سواهن نحو ثلثي الذراع . حتى ان الأميرات
والشيخات والمثويات ، من لباساته ، كنَّ يَرين مشقة في نزعه
عن رؤوسهن ، فيضطرن ، عند النوم ، الى إبعاد فرشهن عن
الجدران مسافة تسع قرنه ، او كان يُحرق لهن خروق في الجدران
يدخلن فيها قرون الطناطير حينما يضجعن .

ويلبس هذا الطنطور فوق طربوش من فضة ، أو من ذهب
منقوش أو غير منقوش ، يربط تحت الذقن ، وي طرح عليه
الشبر ، اي الملاء .

والذي يشاهد صورة الاميرة خاصكية زوجة الامير فخر الدين
الثاني ، المثبتة في هذا الكتاب ، يرى ان ثوبها مؤلف من سراويل
مقفلة رجلاه من اسفلها ، عند الركبة ، بجزمة ؛ وفوقه صدرتان
احدهما مطبقة على الصدر والاخرى لها عرى وازرار ، مفتوحة
من اعلاها واسفلها ومزرورة من عند الزنار ؛ وفوق كل هذا
قنباذ مفتوح من اعلاه الى اسفله ، وممسك على الحصر ، من
امام ، ببكلة ، ومشكوك طرفه الايمن بالزنار شكلاً ودلالاً .
وعلى رأسها طاسة ، عليها عذبتان من الذهب ، علق بها من
جهة قفا الرأس ملاء طويلة تنسدل على ظهرها . وقد امسكت
هذه الاميرة بيسرها طرف الملاء الأيسر ورفعته غنجاً الى
محاذاة كتفها ؛ وامسكت جهته الاخرى بيمنها ، وسفرت عن
وجهها ليتجلى جمالها في هذا الاطار البديع .

ولا يختلف زي الاميرة خاصية عن ملابس الاميرات
والنبيلات اللبنانيات اللواتي شاهدتهن زوجة لامارتين في الحمام
ونقل زوجها، عن لسانها ، صفتها في كتابه «رحلة الى الشرق»
قال :

«حينما نزعنا الائمة والجواري عن الاميرات الملاءات البيضاء،
التي تسترهن ، برزن في ثيابهن الفضة وجواهرهن الكريمة ،
وملابس مختلفة الالوان والاشكال ، وجواهر متباينة الروعة
واللآلة ، ولكنها متشابهة في شكلها وزيتها . وهذه الملابس
مؤلفة من سراويلات من الحرير المقلّم ، ذات ثنيات واسعة ،
معقودة على الحصور بزنانير من الحرير الاحمر ، ومقفلة فوق
العراقيب بجلاخيل من ذهب ، او فضة ؛ ومن فوقها قمص
مدبجة بالذهب ، مفتوحة على الصدور ، ومعقودة عند منتصفها،
واكامها ضيقة من عند الآباط ، ثم تتسع وتنشق من المرافق
الى الأكف . وتغطي الصدور سدول من الحرير الشفاف ؛
وفوق كل هذا معاطف (سلطات) من المخمل ناضرة الالوان،
عليها فراء من جلد السمور ، ومطرزة بالذهب على كل الوصل
المخيطة .

والشعر فرعان : ينسدل فرع منه على العنق ، ويتراعى
الآخر جدائل تتدلى حتى كعاب الارجل ، مطوالة بضاثر من
الحرير الاسود تقلد بها الشعور . وتنحدر من اطراف هذه

الجدائل أهداب حلزونية الشكل من ذهب ، او من فضة .
وثقل هذه الشعور ، بما علّق بها ، يجعلها تتأيل على طول
القامات . والرؤوس مزدرة بأسماط من اللؤلؤ وبنقود منظومة ،
وبازهار طبيعية مختلطة كلها معاً ، ومنشورة ، في شكل بديع ،
على تلك الشعور اللامعة ، التي ينتشر منها أريج الجواهر
والازهار؛ فكأنما بعثرت عليها غلبة من الحجارة الكريمة المختلفة
الالوان .

وشدّ ما يبرز فتون هذه الزينة على رؤوس الفتيات اللواتي
تراوح اسنانهن بين الخامسة عشرة والعشرين . وتضع بعض
نساء على رؤوسهن طاسات من الذهب مخرّمة تحريم احقاق
الفناجين الفضية، تتوامى منها سلاسل قصيرة دقيقة، علقت فيها
بلوطات من الذهب وعذبات من اللؤلؤ المنظوم تتأوج على
اقفية الرؤوس .

وليس في سوقهن أجربة وانما هي عاربة . وفي اقدمهن
سراميج من الجلد المرّ الكشي الاصفر يجردنها في مشبهن تجريراً .
واذرعنّ مثقلة بالاساور الذهبية والفضية ، واسمات اللؤلؤ
المنظوم . وتزفي على الصدور عقود كثيرة تؤلف على التراقي
المكشوفة ضفائر من ذهب ولؤلؤ .

وللاب ماري جوزف ده جيرامب في كتابه «زيارة

لأورشليم وجبل سينا سنة ١٨٣٢» وصف لطنطور الأميرة بدر
كريمة الأمير قاسم نجل الأمير بشير ، وهي التي صارت زوجة
الأمير قيس بن قعدان شهاب ، قال : « ابنة الأمير قاسم في
السادسة عشرة من سنّها ؛ وهي نادرة زمانها في الجمال والتهديب .
تضع على رأسها قرناً طويلاً ، وهذا القرن هو زينة كل النساء
المتزوجات في لبنان ؛ ويكون طويلاً أو قصيراً بحسب منزلة
لابسته الاجتماعية .

«وقد يبلغ طول قرن الاميرات قدمين ونصف القدم، ولهنّ
وحدهنّ حق لبسه دون ان يكنّ متزوجات . ويصاغ إمّا من
الذهب ، أو من الفضة ، وتضع نساء جبل لبنان فوقه قناعاً
فضفاضاً ؛ وولع بعضهنّ به عظيم ، حتى انهن لا يفارقنه لا في
الصحة ولا في المرض ، ولا على فراش الموت ، فيمتن متزينات
به ، ثم يباع بعد موتهن ويخص ثمنه بالقاديس لراحة
نفس الفقيدة .

« ويوجد نوع آخر من القرون كان يُلبس ، من الرأس ،
على جانبه فيستر الاذن ، ويتقدم بصورة بارزة الى ما
بعد الكتف . »

ولرستم باز الديري ، في تاريخه الذي لا يزال مخطوطاً ،
وصف للطنطور وللإزياء النسائية في ايامه ، وكان معاصراً للأمير

بشير ورافقه في منفاه ، أُحْصِه فيما يلي ببعض التصرف ، قال :
 « اما كسوة النساء فمؤلفة من طاسة فضة يصنعها الصائغ ،
 وينقشها نقشاً محكماً ؛ طولها من نصف ذراع الى ثلثي ذراع ،
 على الأغلب ، ولكن زوجتي الامير خليل والامير امين (ابني
 الامير بشير) لبستاها في طول ذراع وفي ثخن ساق الرجل ؛
 وهذه الطاسة تستدق تدريجاً فتكون في ثخن زند رجل معتدل .
 ويوضع لها في رأسها زرة كبيرة مُدَبَّب مصنوع من خيوط
 محوكة ، فتكون به مشابهة للمزراق . ويصاغ لها شمشة فضة
 كسر شفتي (شرابية فضة مخرومة) طولها مقدار شبر ، أو
 يزيد ، تُطلى بالذهب ، وترصع بججارة من زجاج أحمر واخضر
 وأصفر وأزرق . وتسمى الطاسة فوق الجبهة ، وتروّد بمحلقتين
 مركبتين في كعبها ، حلقة فوق كل أذن ، ومحلقتين من فوق
 قفا الرأس ، يركب فيهما زناق (سفيفة او نسيجة تشد تحت
 الخنك الى الرأس) . وهذا الزناق من قصب وحرير يشتغله
 العقّاد ، يربط تحت الذقن . ثم تُصنع فارة ، هكذا يسمونها ،
 وهي مُنطَر (نسيج ذو نقوش ملونة ، تحريف منشر) من
 أطلس طولها شبر محشوة قطناً ، تمسكها شبكة حرير . وفي
 رأس الفارة قيطانتان تربط كل واحدة بحلقة من الحلقتين اللتين
 فوق قفا الرأس . وفي الطرف الثاني قيطانتان اخريان تربطان
 في ضفيرة الشعر .

«وتصنع النساء أيضاً عرقيات كعرقية الطفل ، يحشيناها قطعاً ،
ويضربنها (خياطة على شكل دروب) ويسدون فوهة الطاسة
من أسفل ، ويوسعنها بقدر فم الجرّة .

«ويلتحق بالطاسة ثلاثة عقوص كل واحد بقدر كوز الصنوبر ،
وهو من فضة مفرغة ، وله فم من أسفل في سعة الريال المجيدي .
وفي كل فردة من هذه العقوص زر طويل مُفرغ ، ثقيل ،
يمكن ادخال الحنصر فيه ، وثلاثة بنود من الحرير الاحمر القاني .
يدخل كل بند منها في فردة ، ويعلق في كل بند شرابة حرير
طولها ثلث أو نصف ذراع ، وفي كل بند وشرابته خمسون درهماً .

«وهذه البنود يجدل بها الشعر وتربط الفارة فتثبت الطاسة
في الرأس فوق الأفوخ ؛ ويعصب منديلان مطرزان بججارة
كريمة أو حقيرة .

«أما كسوة البدن فقباز على الغالب منطّر او كرماسوت
عنايي أو شيت ، أو غير ذلك . له زنار يسمينه خورثبه مربع
يشبه المشالغ التي توضع على الاكتاف ، والقميص طويل من
نسيج ستكروزا ، والسراويل حياكة تعقد تكته فوق الازار
ويربط بزمة فوق الكواحل . وتلبس في الارجل بوابج صفراء
او سوداء ، اما «المغندرة» فتلبس بنطوفلة ، وهي شبه البابوج .
ويقال ان الطنطور أبطل عام ١٨٤٨ ، وأبدل منه طربوش

خمريّ اللون يوضع عليه قرص من ذهب أو من فضة ، تتدلى
منه ثلاث عقائص ذوات عذبات من فضة ، تقرع عراقيب
الارجل .

ولبست النساء بعد ذلك القفويّة - نسبة الى قفا الرأس -
وهي مؤلفة من خمسين جديلة حريرية تُعلّق بأطرافها نقود
فضية أو ذهبية تدعى بالموازي ، مرصوفة على قطعة من نسيج
يُعصب بها الجبين ؛ ثمّ أبدل منها بنود حريرية خمرة اللون تُعلّق
عليها نقود صغيرة فضية أو ذهبية ، وفي رأس كل بند دينار
كبير ، وترسل على الكنفين ، وتسمى الصفا .

وارتدين ما سمّينه بالمالسويّة ، وهي ثوب من جوخ
مزر كش . ثمّ تغيّر زي الشعر الى ما سمّوه بالصنوبريات ، وهي
ضفائر من ذهب على شكل السجق ، والسجق كناية عن عذبات
صغيرة من حرير تعلق على دائر السلطة (معطف نسائي) وعلقن
على الصدور الكرديان ، ولعل اسمه محرف عن الكوردون ،
وهو سلك من ذهب يعلق في العنق ؛ وعصبن الجباه بالمقدّر ،
وهو شبه عصابة من تحمل عليها قطعة من الماس ، تدعى ناطوراً ،
مزر كشة بالذهب .

وكانت البنات الاميرات يحدّين السرموجات الحمراء
المحددة الرؤوس ، وتلبس بنات العامة مداساً واسعاً من جلد
أحمر أو أسود له اذنان عن جانبيه .

وبقيت هذه الازياء سائرة حتى سنة ١٨٦٠ ، فتحوّلت الى اشكال اخرى لم اجد لها ذكراً في ما كتب عن الازياء ، وانما استقيت صفاتها من المستآت والمسنين ؛ ولست ارى بأساً في ذكرها وان لم تتعلق بالاميرات وحدهن ، وانما كانت ملابس النساء جميعاً .

كان اول ثوب لبس مؤلفاً من قميص يتدلى قطعة واحدة من العنق حتى القدمين ، وفوقه سلطة من المخمل طويلة الكمين حتى اصابع اليدين ؛ وستر الرأس بطرّحات بيضاء او سوداء من النسيج المُعَيّن (التول) او من المَلَس (الحرير) . ثم لبس فسطان ، سُمي فسطان بأوضه ، مُخَصَّر ، ضيق من امام ، مقصوص على شكل بولكه (معطف نسائي) مرهّل من اعلاه ومزوم من اسفله . ثم ثوب مصري مؤلف من سراويل فوقه قمباز من جنسه ولونه ، مشقوق عن جانبيه . وبين الازياء اللبنانية ، التي جمعها الامير موريس شهاب مدير المتحف الوطني ، ثوبٌ حريري من هذا الطراز سراويله اصفر وقبضه فسقي .

وجعلت المتريات هذا الثوب ، ايضاً ، من جوخ ، وجبكن اطراف فتحني القمباز بالقيطان الحريري ، ولقفن على خصوصهن شالات من الحرير مخططة ، بعضها يسمّى شال كشيير ، وبعضها

شال طيرما ؛ وأرخين ضفائرهن على ظهورهن معلقات باطرافها
الغوازي الذهبية ؛ ولبسن في ارجلهن اللساتيك والكنادر من
جلد ومن قماش .

وانتشر كذلك زي فسطان يدعى ملاكوف، ولعله روسي
الاصل ، وكن يضعن على ذيله طوقاً حديدياً واسعاً يفتش
الارض اذا جلست التي ترتديه . وثمة زي آخر مؤلف من
متيان وتورة^١ وبولكه صغيرة . وحشيت الاوراك بوسائد .
وقد امتدّ وضع هذه الوسائد الى الايام التي سبقت الحرب
الكونية الاولى ، وحشت الصغيرات الصدور صدورهن بمثلها .
ثم سار زي الفسطان الطويل الذيل . وكانت الفتيات
يعلقن على ظهره ، بقطع حريرية ، ملاقط صغيرة من قضة
يمسكن بها ذيله لئلا يكنس الارض . ووضعت في المعاصم
حلي سُميت السليطات ، وهي كناية عن سلاسل ذهبية مجبوكة
في عرض خمس اصابع ، منقوش عليها اشكال حبّ العدس
او السنابل ، ولها اقفال تقفل بها . وكانت المثيرات يقفلنها
بالماس . وعلقت على الصدور عقود من الكهرمان واللؤلؤ ؛
وضُفر الشعر ولُفّ على دائر الرأس لفّ العقال ، او سدل
على الاكتاف، ثم رفعت النساء وجبكنه على رؤوسهن، وتركن

١ سميت تورة لانها على شكل التنور في استدارتها ، وهي لفظة سريانية .

السديل للبنات اللواتي كانت اسنانهن تقضي عليهن بلبس القمص
المخصرة . ثم ارتديت فساطين ملونة مزينة بالشرائط (صغيرة
تسج من الحرير والقطن) . ولُبست في الارجل لباشين (ضرب
من الاحذية طويل الساق يجيك شريط في ثغوب فتحتي ساقه) .
وظال امر هذه اللباشين عند البنات حتى الحرب الكونية الاولى
تقريباً .

اما الازياء اللبنانية الحديثة فقد بدأت بالتطور منذ عام ١٨٩٠
فلبست الفساطين القصيرة قليلاً ، الضيقة دائرة الذيل ؛ وعقص
الشعر ورفع على قمة الرأس من امام ووراء . وفتحت صدور
السلطات ورفعت قباتها واقفة تغطي الرقبة حتى اصول الشعر ؛
ثم الغيت واعتبض منها بالقبات القليلة الارتفاع اللينة . وفتحت
الاكمام حتى المعاصم ، وزُرَّتْ هناك اطرافها ، ثم قصرت
الى الاكواع .

هكذا مشت الازياء متقلبة متحوّلة من شكل الى شكل
الى ان وصلت الى الاشكال التي نراها اليوم .

حمامات الاميرات

جاء في بعض اقوال العرب : الحمام نعيم الدنيا ؛ وفي هذا دليل بيّن على ما كان للعرب المتحضرين من شغف بالاستحمام . ولو لم يكن ذلك لما كنا نرى في التواريخ ذكر مئات الحمامات في المدن العربية الكبرى كدمشق وبغداد وقرطبة والزهراء الأندلسية ومصر القاهرة ؛ ولما كنا رأينا امراء لبنان المعنيين والشهابيين يتأنقون في بنيان حماماتهم ، ويزخرفون سقفها وجدرانها وصحونها بالمرمر والرخام والفسيفساء بما فيها من نقوش وتحرّيم وتوشية .

ولا تزال حمامات الامير بشير، في قصره الأثري، ناطقة بما كان لامراء لبنان من هوى في تشييد الحمامات والتنعم بالاستحمام .

وقد وصف لامارتين هذه الحمامات في كتابه « رحلة في الشرق » بعدما ازاره ايها الامير بشير قال :

« ثم نهضت معه (اي مع الامير) ليبريني حماماته بنفسه ، فإذا هي مؤلفة من خمس غرف ، اوست ، مبلطة بالرخام

المربّع ، ومملطة بملاط من كلس ودقيق الرخام ، ومدهونة
بذوق وإناقة . كدهنها صنّع دمشقيون حاذقون . وفيها فوارات
تخرج من منافذ في البلاط ، فتغير الماء بارداً او فاتراً او حاراً
ينشر حرارته في الغرف .

« وثمة غرفة حمام ببخار الماء الحار لم استطع البقاء فيها الا
دقيقة لشدة حرارتها . وقد وقف في كل غرفة عبيد
بيض ، حسان الوجوه ، عارو الصدور ، يلقون على سوقهم
شالات من الحرير الخام ، مستعدون لتحميم من اراد الاستحمام ؛
فاقترح علي الأمير ان استحم معه ، فأبيت وتركته بين ايدي
العبيد ، وقد تهبأوا للنزع ثيابه عنه . »

ويظهر ان لامارتين رأى حمامات الأمير حين لم يكن قد
تمّ بناؤها كلها ، فوصفها كما كانت يوم زارها ، لا كما صارت اليه
بعد ان كملت . فغرفها لم تبقَ خمساً أو ستاً ، وانما تناهز
التسع ، كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى ، فيها حوضان
ينصب في احدهما الماء البارد ، وفي الآخر الماء الحار ، من افواه
قنابل من النحاس . وثمة غرف خاصة للتدليك فيها مقاعد مبلطة
بالرخام . وبين الغرف صحن واسع في وسطه بركة مرتفعة
الجدران ، فيها فوارة ماء ، والى جانبيها دكتان واسعتان
مرتفعتان ، كانت توضع عليهما الطنافس والمساند للاستراحة
والتزين بعد الاستحمام .

وهذه الحمامات مبهورة بكل ما يحتاج اليه المستحم كالموائد
والاحواض وانابيب المياه ، وجدرانها منقوشة بصورة حسنة
المعاني دقيقة الصنع .

ولم يكن الامراء يتمتعون بنعيم الدنيا الا في ساعات
مخصوصة بهم ، ثم يخلون للاميرات .

وكانت الحمامات للاميرات وغيرهن من النبيلات امكنة
يظهرن فيها عظمتهن وفخفتهن واناقتهن ؛ ومعارض للملابس
الجميلة الفخمة ، وحلاهن الثمينة، وجواهرهن التي كانت تسطع
بين أنوار الشموع سطوعاً يبهر الانظار؛ فينتقلن فيها من غرف
تبعث ببخار الماء الغالي ، فيحثلل عن ابدانهن ما يكون قد
علق بها من الادران، الى غرف تصب من حنفياتها الماء الساخن؛
ثم الى غرف الماء الفاتر، فغرف الابدان والراحة وتناول الاشربة
المرطبة والاطعمة الفاخرة، وسماع الموسيقى والغناء، ومشاهدة
الرقص الشرقي تراوله راقصات من الائمة .

وقدمر الكلام في « ملابس الاميرات » على ما شاهدته
امرأة لامارتين في الحمام من فخفة الاميرات والنبيلات
وتجملهن ، ومختلف زينتهن .

ولم يكن المعنيون اقل عناية من وارثيهم الشهابيين في
تشيد الحمامات، فقد كان لهم في سفح دير القمر، من جنوبها،

حمام مبني بالأجر المغموس بالكلس ، على مساحة سقاية ذراع
مربع ؛ يتألف من خمس عشرة غرفة ؛ تسير إليه الاميرات
من قصورهن بانفاق تتصل بسرداب ، طوله يربي على مئتي ذراع ،
يتمدد تحت سوق الميدان الى ان يتصل بالحمام ؛ سرداب واسع ،
عالي القباب ، حتى لكان في وسع رجلين ان يسيرا معاً ،
منتصبين جنباً الى جنب ، مهما طالت قامتاها وضخت
جنتاها ؛ وفي وسطه بركة يتدفق ماؤها ، فكان الاميرات
كنن في عودتهن من الحمام يجلسن اليها بغية التبريد والاستراحة .
ولا يزال من آثاره ، حتى اليوم ، باب ، وزهاء عشرين
متراً يسميها الديريون بالسبع القباب ، تجري فيها مياه البلد
وسبول الشتاء .

اما اطلال الحمام فقد بقيت حتى بعد سنة ١٨٦٠ ، ثم
عدت عليها عوادي الانسان والاهمال فاندثرت .

ولم تكن الاميرات يسرن في هذا السرداب الى الحمام ،
إلا مبالغة في التحجب ، فلاتأمن عيون المتطفلين . وتشدهن
في الحجاب مُتأت من إغراق الامراء في صباتهن وستورهن ،
عن الأبصار . وكان شيوخ الديريون لنا ، عن اسلافهم ،
انه حينما كانت الاميرات يُردن البروز ليلاً للنزهة في شوارع
البلدة وأسواقها ، أو حينما بشأن الذهاب بالسرداب الى الحمام ،

يخرج في النهار منادٍ ينادي في الديرين أنه محظورٌ على أي
كان منهم ، أرجلاً كان أم امرأة ، ان يخرج تلك الليلة من
منزله ، أو ان يفتح نافذة من بعد غياب الشمس الى الفجر ،
ولا يَلْمُ المخالف الا نفسه .

وقد شدّت خاصكية زوجة فخر الدين الثاني عن عادة
التعجب ، يوم كانت في توسكانا ؛ فان الصورة التي بقيت عنها
تدلّ على انها سفرت هنالك ، وكشفت عن وجهها . ولعلّ
بقاها ، خمس سنوات ، في بلاد كل نساها سوا فر جعلها تخلع
الحجاب ، وجعل الامير يتسامح في امر سفورها .

وليس ادلّ على مظاهر العظمة والفضيحة ، اللتين كانت
الاميرات يحطن بهما انفسهنّ ، من وصف لامارتين لحظة تحميم
عروس اميرة ، اقيمت في بيروت ، ودعيت اليها زوجته ، فأخذ
عنها صفتها وصفه الحمامات قال :

« الحمامات مكان عامّ يمتنع دخول الرجال اليها ، إلا في ساعات
معيّنة ، ليقين مخصّصات بالنساء ؛ واذا اتفق ان اميرة عروساً
ارادت الاستحمام ، قبل عرسها ببضعة ايام ، وفاقاً للتقاليد ،
خصّص بها الحمام طول النهار الذي تختاره .

وغرف هذه الحمامات ضعيفة النور لا تضاء بسوى نور
ضئيل ، يرشح اليها من قباب فيها فتحات صغيرة ، مستديرة ،

عليها كرات من زجاج ملون ؛ وهي مبلطة بالرخام صفوفاً
مختلفة الالوان ، مرصوفة بفرن واتقان . وجدرانها مكسوة
بالرخام والفسيفساء ، او منقوشة في شكل بارز ، مربع
مستدير ، أو في أشكال اعمدة عربية الطراز .

وحرارة الغرف تدرجية ، فالغرفة الاولى في حرارة الهواء
الطلق ، والثانية فاترة ، ثم تزداد قوة هذه الحرارة درجات
درجات حتى الغرفة الاخيرة ، حيث البخار الغالي ينبعث من
الاحواض ويملا جو الغرفة بجملة تكاد تكون خانقة .

ولا توجد أحواض محفورة في صحنون الغرف ، وانما توجد
حنفيات تجري متسلسلة ، فتصب على البلاط ماءً بمقدار نصف
اصبع ، يجري في مجاري دقيقة ، يتجدد دائماً فيها .

وليس الاستحمام ، في الشرق ، بالتفطيس ، وانما هو بدفق
الماء الساخن دفقاً متوالياً ، وبتأثير حرارة البخار في الابدان .

كان الحمام ، في ذلك النهار ، مخصصاً بعروس أميرة ، وقد
دعي اليه زهاء مائتي سيدة من نبيلات المدينة وضواحيها ،
وبينهن بعض الاوروبيات ؛ فجاءت كل واحدة من الاميرات
والنبيلات ملتفة بثوب واسع يستر ثيابها الفخمة ، وكهن
مصحوبات باماء سود ، او بجوارٍ بيض حرّات ؛ وكلما وصل
موكب من مواكبهن اجتمعت نساؤه كتلاً ، وجلسن على

حصر ومساند معدة في الرواق، فتأتي جوارهن وينزعن عنهن
الماء ليبرزن في ملابسهن .

ولما اجتمعت المدعوّات كلهن عزفت موسيقى عنيفة بالنقّيرات
والمزامير ، وغنت نساء ، مرتديات ثياباً من الانسجة الشفافة
الحمراء ، باصوات حادة مخزنة ؛ ولم تنقطع هذه الموسيقى طوال
النهار ، فكانت تنشر في ذلك المشهد البهيج ضجيجاً صادعاً .

ثم برزت العروس تصحبها امها واترابها ، لابسة ثوباً فضماً ،
ويتوارى شعرها وساعداها وعنقها وصدورها تحت عناقيد من
النقود الذهبية والالآء ؛ فتواصت المحمّمات بها ، فنزعن عنها
ما عليها من الخلى قطعة قطعة . وكانت النساء يتعريّن ، في خلال
ذلك ، ثم ابتدأت مراسيم الاستحمام المختلفة ، والموسيقى تعزف
اللحن نفسه ، والصياح يتواصل من غرفة الى غرفة . فاستحمين
اولاً بالبخار الحار ؛ ثم صبّ عليهن ماء معطر ؛ ثم جاء دور
اللعب والدعابات ، فأخذن بالعباب واعمال مضحكة ، وهن يصحن
صياحاً حاداً تقاطعه القهقهات ، فعملّ التلميذات الصغيرات اللواتي
يؤخذن الى السباحة . تراشقن بالماء ، وغطّس بعضهن رؤوس
بعض في الاحواض الملأى ، ودفق بعضهن الماء على بعض ،
والموسيقى تعزف عزفاً بين قهقهات الفتيات العربيات ، تثيرها
هذه الالعب الصبيانية .

وحينما انتهين خرجن من غرف الاستحمام الى غرف التبرّد
والراحة ، فجدلت كل أمة وكل جارية شعر سيدتها الرطب ،
وعقدت لها عقودها ، وألبستها أساورها وحلاها وثيابها الحريرية
وسلطانها المخيلية . ثم بُسّطت بينهنّ مساند على حصر الردهة
المغسول صحنها ، فقعدن وأتين بسلال وصرر من الحرير ملئت
بالزاد المحمول معهنّ . وهذا الزاد كناية عن معاجين ومربيات
من كل الانواع التي يميّز بها العرب والتوك ؛ فأكلن ، وشربن
شراب الليمون المثلج . ثم أتيت النساء المستات بالفلايين
والنارجيلات ، فتعالى الدخان المعطّر حتى ملأ اجواء الغرف ؛
وجيء بالقهوة في فناجين صغيرة ، موضوعة في احقاق من
الذهب والفضة ، محرّمة ، فطلّت تدار عليهنّ ، وتدور الأحاديث
بينهنّ ، الى ان برزت الراقصات يرقصن ، على الموسيقى عينها ،
الرقص المصري في حركاته الغريبة المتشابهة .

ولما انقضى النهار ، وعنّ على هذه الحال ، وارخى الظلام
سدوله ، عاد الموكب النسائي بالعروس الى بيت امها . »

ومهما يكن من اطلاق لامارتين العنان لحياله الشعري في
هذا الوصف ، فاننا نرى فيه صورة محسوسة لحفلات الاستحمام
الجميلة البهجة التي كانت تحتفل بها اميرات لبنان .

مسرح الاميرات

ليس مسرح الاميرات الا دير القمر ، فهي التي نشأ فيها ،
الا بعضهن ؛ وهي التي كانت سماؤها مستظلاً لها ، وأرضها
مخففاً لأقدامهن . حتى اللواتي لم ينزلن منها ، لم يكن لها
منصرف عن الامام بها . ومن تراه في تلك العهود يستغني عن
التعريج الى عاصمة المعنيين ، ثم الشهابيين ؟

ودير القمر قديمة العهد ، ويقدر انها ترجع الى زمن الفينيقيين ،
بدليل المدفن الفينيقي الموجود تحت غابة الصنوبر ، وهي غابة
تقوم على الجبل المشرف على الدير من شمالها .

وهذا المدفن ، الذي لا تزال آثاره حتى اليوم ، محفوراً في
صخر نُقشت عليه صورة قمر ..

وربما بني على هذه الصورة ذلك التقليد القائل ان البلدة
سميت دير القمر لأنه كان فيها معبد لاله القمر ، وهو الاله
الذي كانت تعرفه الوثنية القديمة باسم « سين » .

وتمتة ديلان آخران حسيان يدلان على قدم الدير : احدهما
فوق الشربين ، ذكره البحّثة الديري جرجس صفا نعمه ، بعد

ذكره للمدفن الفينيقي المتقدم ذكره ، وقال عنه : « انه كان
معبداً وثنياً ، استخدم لزمان خلوة للدروز ثم هجر . »
والدليل الآخر هو اسم الشالوط ، الينبوع الذي يشرب
منه الديريون : فهذا الاسم آرامي يعني المنحدر ، او المنصب او
الشلال ، ولا ريب انه كان في قديم الزمان ينحدر انحدار
شلال ، فدعي بذلك .

ويرجع بعض المؤرخين بناء دير القمر الى القرن الخامس
للمسيح : فقد جاء في كتاب « أعمال الرسل للبولنديين » ١٥
شباط - ١٢٦ نقلاً عن تاريخ قديم : « ان القديس ربولا
الشميساطي قدم بيروت في أيام القيصر زنون الازوري ،
امبراطور الشرق من سنة ٤٧٤ الى سنة ٤٩١ م ، وتعبّد لله
في جبال لبنان الموحشة . ثم شيد بمساعدة القيصر نفسه ،
ومساعدة يوحنا حاكم بيروت ، ديراً كبيراً ، في وسط الجبل ،
كان يعيش فيه مع رهبانه بين الجبلين ، وهم وقتئذ يتسكعون
في ظلمة الوثنية ؛ ففقد حججهم في اعتقاداتهم ، واجتذبتهم الى
الدين القويم ، الا نفرأ منهم . »

ويرثي الاب مرتين اليسوعي في صفحة ٢٣٨٩ ، من كتابه
« تاريخ لبنان » الذي لا يزال مخطوطة ، « ان هذا الدير الذي
بناه الراهب ربولا هو دير القمر . »

على ان الاب جوزف غودار اليسوعي يرى ، في كتابه « البتول في لبنان » ، رأياً آخر ؛ فهو يرجح « ان دير القمر هي بقية الدير ، الذي ذكر المؤرخ البيزنطي ، بروسيد أوديف ، ان الامبراطور يوستينيانوس بناه للقديس فوكاس في سنة ٥٥٠ فوق جبل بورفيريون^١ الواقع تحت دير القمر من جنوبها الغربي . »

وكيف دار الأمر ، فإن هذين الرأيين لعلمين من اعلام المؤرخين ، يرهنان برهاناً قوياً على قدم دير القمر .

وبما لا نزاع فيه ان هذه البلدة كانت بين الاقطاعات الصليبية الاثنتين والثلاثين ، أعطيتها رهبانية سيدة الالمان التيتونية في آذار سنة ١٢١٦ .

وتقول التقاليد انه كان لهذه الرهبانية دير حيث تقوم اليوم كنيسة سيدة التلة ؛ وان الحجر المثبت في جدار الكنيسة الجنوبي ، المنقوش عليه نقشاً بارزاً ، صليب مرتكز فوق هلال في وسطه نجمة ، هو من بقايا ذلك الدير التيتوني .

بيد ان اسم دير القمر يتوارى منذ انهيار الدولة الصليبية ،

١ بورفيريون : هو النبي بونس ، أو الجية ، بين الدامور وصيدا ، سمي هكذا في عهد الفينيقيين لان موضعه كان اما مصنفاً للبرفير ، او مصبفاً لنسيجه .

ولعل ذلك متأت من خرابها كلها ، أو بعضها ، على اثر الحروب الصليبية ؛ حتى ان المؤرخ اللبناني ، صالح بن يحيى ، لم يذكرها في كتابه « تاريخ بيروت » بين اقطاعات اسرته التنوخية ، في حين انه ذكر ما حوالها كبعقلين ، ودير دوريت ، وكفرحمل وغيرها .

وقد لبثت الدير خراباً الى ان رمّمها الامير فخر الدين المعني ، الاول .

وفي اهتداء هذا الامير الى مكانها اسطورة تقول : « انه بينما كان رعيان آل معن يرعون مواشيم في الغابات التي كانت حيث تقوم دير القمر ؛ تلك الغابات التي بقي منها أثر في غابة الشربين المتوغّلة في القدم ، المشرفة على الدير من شمالها الشرقي ؛ عطش الكلب الذي كان يرافقهم ، فتغلغل في الغابات ثم عاد اليهم يقطر لحياء وفمه ماء ؛ فراقبوه في اليوم التالي ، حتى اذا ذهب ليشرّب اتبعوه ، فكشفوا ينبوع ماء عذب ، وكان اسم كلبهم شالوط فسمّوا الينبوع باسمه . ثم أطلعوا اميرهم على ما كان من الأمر ، ولما لم يكن في بعقلين ماء ، عزم على بناء بلدة قرب الشالوط ، فبنى دير القمر .

ويمكن الاستدلال على تاريخ اعادة بناء الدير من التاريخ المنقوش على بلاطة ، مثبتة في الجدار القائم شمالي باب الجامع

الغربي ، وهو سنة ٨٩٩ هـ اي ١٤٩٣ م : ذلك بان المسلمين لم يكونوا يحتضون بلداً الا اختطوا في البده جامعاً، ثم بنوا البلدة حوالبه ؛ فترميم الدير اذاً كان في سنة بناء الجامع .

ولكن من أين أخذ اسم دير القمر، ولماذا سميت به ؟ قلنا ، فيما تقدم من الكلام ، ان بعض التقاليد ترجع هذا الاسم الى المعبد الذي كان هناك لاله القمر ؛ على ان في هذا التقليد موضعاً للشك: لأن كوكب الليل لا يسمى في الآرامية قرماً، وانما يسمى فيها ساهوراً، ومعلوم ان الآرامية هي اللغة التي سميت بألفاظها جل قرى لبنان ، ان لم نقل كلها .

وفي الدير اسطورة قديمة تقول: ان هذه البلدة سميت بهذا الاسم للصخر، الذي وجد مدفوناً في التلة، التي بنى عليها كنيسة سيدة التلة الموارنة الاول ؛ يوم جاؤوا تلك المنطقه يرئسهم الاب عبد الله المعريس ليقبوا بين الدروز .

وقد كان اول شيء فكر فيه الاب عبد الله ومن قدم معه ان يبنوا كنيسة لهم ؛ فاختاروا سفح التلة ، وكان عليه انقاض بناء قديم . ولما حفروا ارضه ، ليضعوا اساس البناء ، وجدوا صخراً منقوشاً عليه صليب ، ففرحوا حيناً رأوه ، وادركوا ان مسيحيين قبلهم نزلوا هذا المكان . ثم شاهدوا على الحجر نفسه هلالاً ونجمة ؛ وكانوا يعلمون ان القمر ، في المسيحية ،

رمز للسيدة العذراء ، والنجمة انما هي شمس رامزة الى السيد المسيح ، وان الشمس محاطة بالهلال رمز الى الامومة الالهية . فأيقنوا انه كان ، في ذلك المكان ، مقام للسيدة العذراء ، فخصصوا كنيستهم بها ، وسموها سيدة التلة ؛ وسموا البلد بدير القمر ، تيمناً بذلك الحجر ، الذي اثبتوه فوق الباب في جدار الكنيسة الجنوبي . وقد سُدَّ هذا الباب اليوم ، ولكن الحجر لا يزال حيث وضع ؛ وصارت سيدة التلة ، منذ ذلك الحين ، حامية دير القمر .

غير ان هذا الرمز المنقوش على الحجر يمكن ان يرمز ايضاً الى عقائد وثنية : فالهلال عند الفينيقيين رمز لعشتروت ؛ وكان الصليب عند الوثنيين من التعاويذ التي تُستدفع بها الشرور ؛ فمن الممكن ان يكون هذا الحجر بقية من معبد الاله القمر الذي تحدّث به التقاليد .

ولا نرى الآن بدأ من ان نسائل متى قدم الموارنة الاول الى دير القمر ، أقبل المعنيين ام في عهدهم ؟

اذا رجعنا الى تاريخ الامير حيدر ، الذي طبعه نعوم المغنّب ، نرى ان اول نفرة نفرها نصارى كسروان وجبيل الى نواحي الشوف كانت في سنة ١١٤٤ . فالامير حيدر يقول في كلامه على حوادث هذه السنة : « في هذه السنة ظهرت

البدعة في بلاد جبيل وكسروان ، من رجلين كانا يقولان ان
الله تعالى لم تكن له روح مخلوقة ، وطبعه غير الوجود
والآلام^١ . ووقع الشقاق والاختلاف بين نصارى تلك البلاد .
وحين بلغ الملك الظاهر برفوق^٢ جهز العساكر ، وغزا نواحي
كسروان ، واقام الحرب عليها سبع سنين ، واحرقت عساكر
المسلمين تلك القرى التي في بلاد جبيل وكسروان ، وقطعت
الاشجار ، الى ان تولى صلاح الدين الايوبي يوسف اول ملوك
الايوبيين^٣ ؛ ولم يسبق عامراً سوى حصن معراب ؛ وهربت
نصارى كسروان وبلاد جبيل الى نواحي بلاد الشوف .

وعلق نعوم المغنّب على هذا بقوله : « قبل هذه السنة لم
يوجد من النصارى الموارنة في بلاد الشوف ولا عائلة ، لان
جميع الموارنة فيه اتوا اليه من بلاد جبيل وكسروان . »

١ يشير الى بدعة اليعاقبة الذين انكروا ثبوت الناسوت لسيد المسيح .

٢ لم تكن سنة ١١٤٤ من عهد المماليك ، وانما كانت من عهد الفاطميين ، وكان
السلطان يوم ذاك في يد الخليفة الحافظ بن محمد (١١٣٠ - ١١٤٩) ،
اما الملك الظاهر برفوق ، وهو احد سلاطين دولة المماليك البرجية ، فقد
تولى من سنة ١٣٨٢ الى سنة ١٣٩٢ ، وفي قول الامير حيدر ما فيه من
الخطأ التاريخي .

٣ تولى صلاح الدين السلطنة بعد العاصد آخر الفاطميين وذلك من سنة ١١٧١
الى سنة ١١٩٣ .

فهذه النفرة كما يدل تاريخها حصلت في أيام المعنيين ، لان
الامير معنأ جاء الشوف بوجاله في سنة ١١١٩ ، ويقول الخالدي
في تاريخه : « ان الامير معنأ سكن دير القمر . » فدير القمر اذاً
كانت قبل المعنيين الذين دخل المواردنة الشوف في ايامهم ،
وكان اسمها معروفاً قبل العثور على ذلك الحجر .

ولعل اسم الدير آرامي الاصل ، وكان يُلفظ قبل استعراجه
دير قمر ، او دير قمرا ، بدون آل التعريف العربية ، ومعناه:
الدير الاحمر ، او الدار الحمراء ؛ وربما سميت به البلدة لاحمرار
تربتها ، أو لأمر آخر نجعله ؛ بيد ان الديرين لا يزالون حتى اليوم
يدعون منطقة الكروم الواقعة شمال شرقي الدير باسم
الجلّ الاحمر .

اما الامير فخر الدين الاول ، فمن الممكن انه عرف اسم
هذه البلدة إما من عثوره على سكان قدماء فيها ، أو لأن سكان
القرى المجاورة اعلموه به ، لأنهم ولا بد كانوا يعرفونه ، فأبقاه
لها . ولكنه زاد على جزئه الثاني آل التعريف العربية ، فصيرره
عريباً ، وتحوّل معناه من الدار الحمراء الى الدار البيضاء ؛
لان لفظة القمر تعني ، في العربية ، البياض ، سمي بها كوكب
الليل لبياضه .

ولا تزال لفظة القمر بمعنى الاحمرار في كلامنا العامي ، فنحن

نسبى كل رغيف ، جاء من الفرن محمراً الوجه ، رغيفاً مقمراً .
رسم فخر الدين الاول دير القمر وبني جامعها ، وأنشأ فيها
منازل لأهله ؛ غير ان الآثار المعنية الباقية ، اذا استثنينا منها
الجامع ، تُعزى الى حفيده فخر الدين الثاني . فهو الذي ترك
القصر ، الذي تُسمى سطوحه بسطوح الحُرج ، لأن الامير بشيراً
الشهابي الثالث كان يوزع فيها على الناس خرجاً . والُحرج في
الاصل الحُراج ، واريده هنا ما يُخرج حصة من الطحين ،
فلقبت السطوح به واكتسب الامير كنيته أبا طحين . ويقال
أيضاً انه لقب أبا طحين لرخص الطحين في عهده . وترك فخر الدين
الثاني كذلك دار الحكم التي فوق سوق الميدان ، والقيصرية ،
والبوابة الأثرية المخرمة حجارتها العكارية نقوشاً هي غاية في
الدقة والفن ، والقبة التي تحت الشربين ، وسبيت أيضاً
قبة المشائيق .

والى جانب هذه الآثار المعنية تقوم الآثار الشهابية : القصر
الذي بناه الامير ملحم ببوابته التي تضارع في جمالها البوابة
المعنية ؛ والسراي التي يعزى بناؤها اليه ؛ والسراي الاثرية التي
يرجع ان اقيمتها الضخمة التي تسمى المصنعة معنية ؛ وان في بنائها
العلوي بعض بناء معني ، ربما الامير يوسف الشهابي ، وزاد
فيه ردهته والقسم الغربي منه ، فنسبت السراي اليه من جرّاء
ذلك ، وقيل لها سراي الامير يوسف .

وقد خلط بعض المؤرخين في تاريخ بناء الامير يوسف هذه السراي ، فقالوا : انه بناها في سنة ١٧١٢ ، مع ان الامير يوسف ولد في سنة ١٧٤٧ ، فهو اذاً ، في زعمهم ، بناها قبل ان يولد بخمس وثلاثين سنة ؟

هذه البلدة ، دير القمر ، كانت اذاً مسرحاً للأميرات اللبنانيات ؛ وتلك الابنية الفخمة الباقية ، والابنية التي تهدمت وبقيت آثارها ، كانت منازلهن . ولو ان جدرانها اتصلت بلسان ناطق لقصت علينا قصص اولئك الاميرات في غبظتهن وكدرهن ، وفي افراحهن واتراحهن ، وفي حبهن وبغضهن ؛ قصصاً ما كان أروعها وأعذبها ، لو قدّر لتلك الجدران العتيقة ان تكشف عنها !

اميرات لبنان

٥	اميرات لبنان
						اولى الاميرات
١٥	ديدون الصورية (بانية قرطاجنة)
						اميرات العهد المعني
٢٩	طية المنية
٤٣	ام فرقماز المنية
٥٣	نسب التوخية
٦٢	نساء فخر الدين وبناته
٧٤	جهان الشهابية
						اميرات العهد الشهابي
٧٩	ام دبوس اللعية
٩٣	شمس الشهابية
١٠٦	حبوس الارسلانية
١١٨	حسن جهان
١٣١	سعدى وسعود
						ملابس الأميرات - حماماتهن - مسرحهن
١٣٥	ملابس اميرات لبنان
١٤٩	حمامات الاميرات
١٥٧	مسرح الاميرات

T

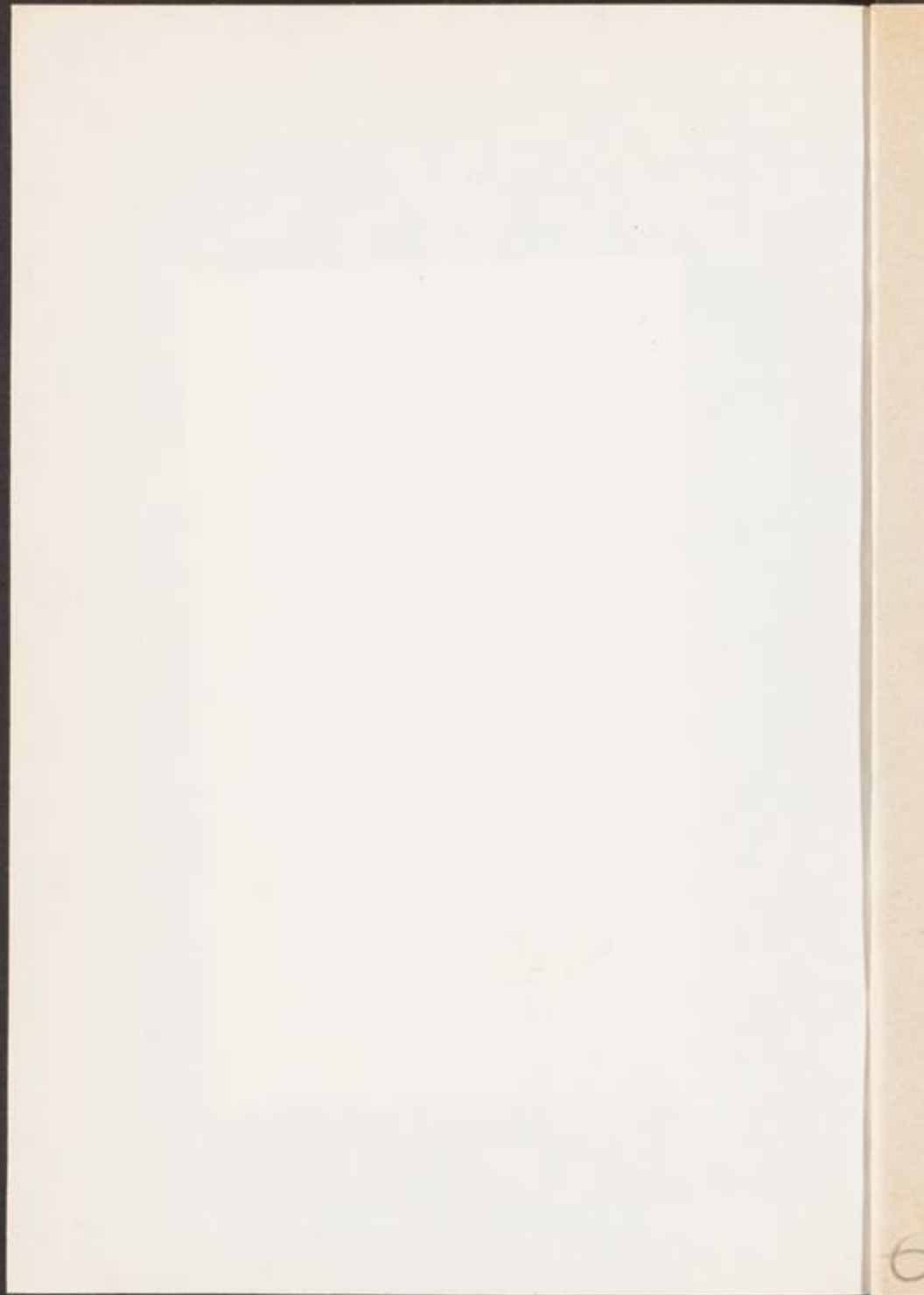
S

Back

*PB-39115
5-OLT
CG

B

6





NYU - BOBST



31142 02824 1282

DS80.75 .B87

Amirat Lubnan

ST